العذراء مريم

وميلاد المسيح

عيسى عليه السلام

بين القرآن والإنجيل

تأليف

فتحي فوزي عبد المعطي



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قرآن كريم سورة عمران الآيتان ٤٢ ، ٤٣

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَٰنَ الَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ الْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

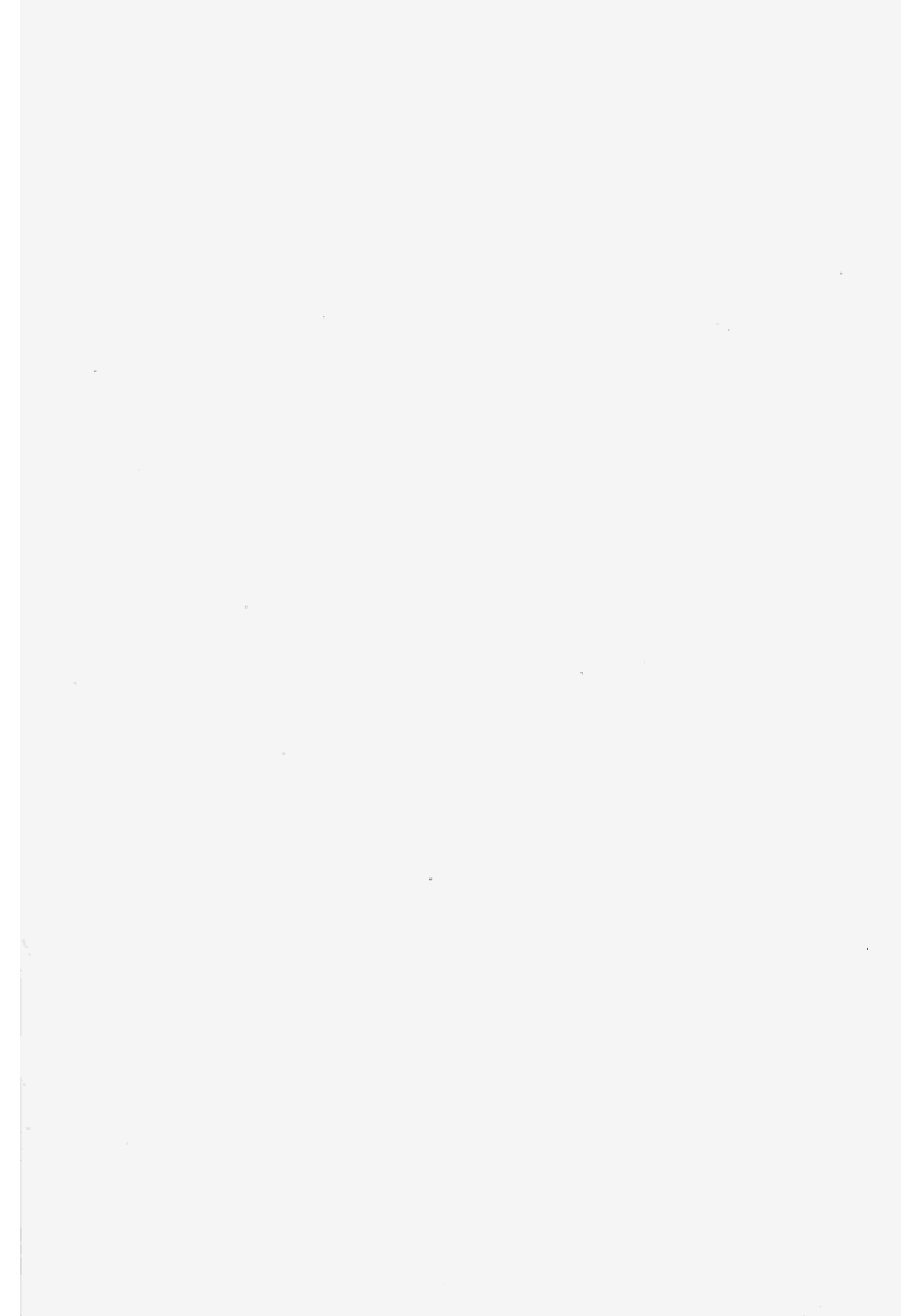
قرآن كريم سورة التحريم الآية ١٢

«أَفْضَلُ النِّسَاءِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»

حديث شريف

«السلام عليك يا ممتلئة نعمة الرب معك مباركة أنت من النساء يا مريم»

انجيل لوقا الفصل الأول الفقرة ٢٨



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

يتفق جميع المسلمين والمسيحيين على طهارة العذراء مريم أم المسيح عيسى عليه السلام ... بل لعل القرآن الكريم قد اختصها بمزيد من التمجيد وفضّلها على كثير من نساء العالمين .

ولقد كان ميلاد المسيح عيسى عليه السلام من غير أب معجزة فريدة أجراها الله على يد مريم ليكون دليلا على قدرة الله ومشيئته .

وفى هذا الكتاب تدور أحداث قصة ميلاد العذراء مريم من أبوين كبيرين فى السن وميلاد المسيح عيسى عليه السلام .

وقد راعيت فى سرد أحداث القصة عدة إعتبارات هى :

١ – الرجوع إلى القرآن الكريم وما يتفق معه من الأناجيل الأربعة .

٢ – دراسة للمسرح الذى دارت عليه أحداث القصة من الناحيتين التاريخية والسياسية وربط هذه الظروف فى كل من فلسطين حيث ولد المسيح وفى مصر حيث عاش بها بعض سنى حياته .

٣ – توضيح قدرة الرب فى ولادة مريم والمسيح وما صاحب ذلك من أحداث ومعجزات .

ولعلى بهذا أكون قد وفقت والله ولى التوفيق

المؤلف / فتحى فوزى عبد المعطى



(١)

كان الفجر يسرع بخطاه إلى العالم .. يطارد بنوره ظلام الليل .. يعلن عن ميلاد يوم جديد .. يفرش ضوءه على سفوح أرض حبرون فى فلسطين ، فيلفها وما حولها بستارة فضية ندية .. تبدو من خلالها صور كثيرة رائعة تنطق بقدرة الرب وحكمته .. فما هى إلا لحظات .. حتى كانت الشمس تشرق فى الأفق .. تبتسم للعالم فى إشراق .. تلقى بأشعتها على تلك الدور المتناثرة .. توقظ العالم من سباته، لينهض الناس من نومهم كى يبدأوا معها رحلة الحياة التى اعتادوها كل يوم .. واستيقظت مع من إستيقظ من أهل حبرون .. حنة بنت فاقود .. واحدة من نساء بنى اسرائيل .. فأيقظت معها جاريتها .. ونهضتا سويا تطالعان فى السماء وجه النهار .. وتنظران الشمس وهى تكبر فى الأفق .

كانت حنة فى الخمسين من عمرها أو تزيد .. عرفت بين قومها بالإيمان .. سعيدة بزوجها عمران بن ماثان .. أحد فقهاء قومه .. لكن شيئا ما يقلق حنة وزوجها .. يمزق بعضا من أستار هذه السعادة التى نسجا معا خيوطها من الحب والإيمان .. فكم تحن نفساهما إلى ابن يملأ عليهما حياتهما .. يتفيأ بظلال حنانهما .. يرث مكانة أبيه .. فيكون واحدا من كهنة الهيكل .. إلا أن الأمل قد ضاع .. أضاعته الأيام والسنون ، فقد مضى عليهما الزمن طويلا ، ولم يحقق لهما الرب أملهما ، وكاد عمران .. وقد أصابه الكبر .. أن يقنع بما شاء

له الرب من سعادة بين أهله وزوجه .. لكن حنة ما تزال فى لهفة إلى تحقيق الأمل .. تتذكره كلما أحست بعاطفة الأمومة تهدهد قلبها .. أو كلما شعرت بنظرات نساء قومها كامرأة عاقر .. لم تكف عن الدعاء لربها .. تناديه :

- رباه .. إلهى وإله آبائى .. باركنى واستجب لدعائى ، وامنحنى ولدًا تقر به عينى .

حتى كان ذلك اليوم .. حين إستيقظت حنة وجاريتها وراحتا تتابعان قرص الشمس وهو يكبر فى الأفق .. فى ذلك اليوم - لأمر شاءه الرب - أحست حنة بحنين يدفعها إلى أن تمضى بعيدًا عن ديارها .. إلى تلك الحقول المحيطة بأرض حبرون .. لذلك أسرعت وجاريتها واتخذتا طريقهما بعيدا .. علهما تستمتعان بنسمات الصبح النقية ، وتستنشقان عبير الأزهار الندية .. تزكيها تلك الحدائق المتناثرة التى عرفت بها أرض حبرون .

ورأى الصبح حين أسفر .. إمرأتين تمضيان بعيدا عن ديارهما .

كان جميلا كل ما يحيط بحنة .. فالهواء رقيق وحبات الندى كاللؤلؤ المنثور فوق الأعشاب .. ونبت القمح يشق طريقه خلال الأرض التى رطبها الندى .

لم تدر حنة كم من الوقت مضى عليها وهى تطالع سطورًا لقدرة الرب .. فإنها لكذلك .. إذ أبصرت فوق شجرة .. طائرا يزق صغاره .. يطعمهم بمنقاره ، والصغار فرحى بأمهم .. سعداء بحنانها .. يصفقون بأجنحتهم . هنالك تذكرت حنة أمرها ،

وتحركت فى نفسها عاطفة الأمومة ، وتمنت لو منحها الرب طفلا .. تسعد به كما تسد هذه الأم بفراخها ، فراحت تدعوا ربها :

- رباه .. إله آبائى .. باركنى .. إمنحنى ولدا تقر به عينى .. رباه .. جلت قدرتك .. منحت هذا الطائر عطفه على فراخه .. فهلا يارب منحتنى إبنا أفيض عليه من عطفى وحنانى ..

طار الطائر من عشه بعد أن خلَّف وراءه صغاره سعيدة .. ومضت حنة تتابع هذا الطائر وهو يبتعد ، فذكرت زوجها عمران ، وكان قد طال به المقام فى البرية .. صائما لربه عابدًا .. هكذا إعتاد أن يفعل ، ومرت بذهنها صورته ، فراحت تسائل نفسها .. أتراه ما زال على عهده .. يذكرها عند ربه فى صلاته وصومه !! أتراه دائم الدعاء لربه .. أم تراه قد يئس من تحقيق الأمل بعد أن أصابه الكبر ؟!!

وأقبلت الجارية على سيدتها ، فلاحظت آثار دموع ما تزال تترقرق فى عينها ، فأدركات أن حنة تعانى أمرا ما .. تجتسبه فى صدرها ، وكانت الجارية تعرف من أمر سيدتها شغفها بالولد ، فقالت وهى تحاول أن ترسم على شفتيها ابتسامة ما :

- ما أحسبك إلا أنك تفكرين فى أمر سيدى ، فقد مضى على فراقكما طويلا ، ولكنه عائد اليوم أو غدًا فيما أعتقد فهونى عليك ياسيدتى .

قالت حنة ، وقد أيقظتها هذه الكلمات من تفكيرها :

- لا .. فما حزنت اليوم لفراق عمران وكيف أحزن .. وأنا أعلم أنه تركنى ؛ ليسعى إلى ربه .. لعله عائد اليوم أو غدا .

- فأى شيء يشغلك ياسيدتى ؟! وهذا الكون من حولنا يملأ النفس بهجة وسعادة ..!!

- بل هناك أجمل من هذا يافتاه ..

- فأى جمال تعنين ياسيدتى ؟

- ذلك الذى أيقظ فى نفسى شيئا .. آخر غير ما تتحدثين عنه .

- ....؟!

- هذه هى الحقيقية يا فتاة .. أحاول أن أنساها .. لكنى دائما أتذكرها .. تذكرنى بها عاطفتى كامرأة .. ذكرنى بها اليوم هذا الطائر ، وهو يزق صغاره .. ويلى أنا لقد عيرنى الناس بعقرى .. لم يمنحنى الرب الولد .. ويعلم الله أنى ما أثمت ، ولا فرطت فى حقه .

قالت الجارية وقد هزتها كلمات سيدتها :

- هوِّنى عليك يا سيدتى فالرب أرحم بك .

- إنما تمر الأيام .. وتتعاقب السنون .. وأخشى ما أخشاه أن أترك العالم كما جئت إليه .. شجرة بلا ثمر .. ما تلبث أن تجتث ، فلا يبقى لها فى الوجود أثر !!

فمسحت الجارية آثار دموع سيدتها وهى تقول :

- فليباركك الرب ، كما بارك سارة زوج إبراهيم الخليل ، فمنحها إسحق بعد طول إنتظار .. بحق الرب أمسكى عن قلبك السخط ، وابعدى عنك اليأس ، ولتشرق فى نفسك الآمال ، واتجهى إلى ربك فأدعوه .

- فإن الدعاء هو عزائى .
- إنى وحق الرب ألمح فى عينيك بارقة أمل .
- فهل يكبر الأمل يا فتاة ؟ وهل يمنحنى الله فى الغد ما حرمنى إياه بالأمس .
- فأما الأمس فدعيه وشأنه ، وأما الغد ..
- لعله يكون أفضل .

كاد الحديث أن ينتهى بين حنة وجاريتها ، ولكن الجارية عادت تقول :
- بحق الرب يا سيدتى .. هل تستمعين إلى رأى أراه ؟
- فإنى مصغية إليك ، فحدثينى بما شئت .. فكم أشعر فى كلماتك بلسما لجراح نفسى .. حدثينى يا فتاة ..

قالت الجارية ، وقد أسعدتها كلمات سيدتها :
- فإن الذى غرس فى قلبك الآمال .. لا يعجز أن يتعهدها بعنايته .. حتى يحققها لك ثمرة فى بطنك .. ثم جنينا فى أحشائك .. ثم طفلا تقر به عينك ، فهلا تعاهدين الرب .. إن منحك الولد .. أن تتقربى به إليه .. تنذريه لخدمة الهيكل ؟!
فصاحت حنة فرحة :
- أعاهد الرب على ذلك .
- هيا يا سيدتى ، فصلى للرب وادعيه ، وعاهديه أن تمنحيه الولد ؛ اعترافا بفضله .

ونزلت هذه الكلمات فى نفس حنة كما تنزل قطرات الندى على

الزهرة الذابلة .. فأى سعادة أن ترزق بالولد ، وتمنحه لخدمة البيت .. ليكون واحدا من سدنته .. راعيا لدين الله ، وأسرعت حنة تصلى لربها ، وقد رفعت يديها متوسلة داعية :

- رباه .. فإنى أعاهدك أن يكون ما تمنحه لى محررا لهيكلك المقدس .. تشهد على هذه الشجرة .. وهذا الهواء من حولى .. وهذه السماء من فوق .. فتقبل يارب نذرى !!

فما انتهت من كلماتها .. حتى خيل إليها أن هاتفا يهتف بها .. أن الرب قد استجاب لصلاتها وأنه محقق آمالها .

وكان النهار قد أوشك على الرحيل .. وقرص الشمس يمضى عائدا إلى الأفق .. فمضت حنة وجاريتها عائدتين إلى ديارهما .. وسؤال يلح عليهما .. هل يحقق الرب دعاءهما ؟!!



(٢)

أقبل عمران على زوجه حنة فإذا هى فرحة على غير عادتها .. وإذا تلك السحابة الكثيفة من الحزن التى كانت تعلو جبينها .. قد تلاشت خلف إبتسامة مضيئة تكبر على ثغرها .. حتى لتكاد تملأ وجهها .

وأقبلت حنة على زوجها .. فرحة بمقدمه بعد طول غياب .. مشرقة المحيَّا .. ينطق وجهها بكل ما يملأ نفسها من فرحة وسعادة .. ونظرت هى على وجهه صورة لم تعهدها .. صورة حلوة رائعة .. لم تستطع رمال البرية التى عفَّرته أن تحجبها عن وجهه ، فبدا مشرقا .. بل أكثر ما يكون إشراقا .

قالت حنة لزوجها ، والكلمات تقفز على شفتيها :

- أرأيت يا عمران .. كم يسعد الإنسان حين يرتوى الماء الزلال بعد ظمأ طويل ؟

فأجابها زوجها ضاحكا :

- وكم يفرح الغريب حين يئوب إلى داره بعد طول فراق ؟!

- الرب راعينا يحفظك لى .

وكان الحديث بينهما طويلا ممتعا .. أنس كل منهما إلى الآخر أنس الحبيب لحبيبه ، والرفيق لرفيقه ، وفرح كل منهما بصاحبه فرحا ملأ عليهما لحظاتهما ، فأحسا بالسعادة تضىء كل ما حولهما ، وتشرق

فى نفسيهما بالبهجة والفرحة .. أتراه كان حنين الزوج لزوجته ، بعد طول إفتراق !!.. أم تراها فرحة اللقاء ؟.. أم تراه غير هذا وذاك ؟

وأحست الجارية بما بين الرجل وزوجه .. فمضت بعيدا .. إلى حيث تعد لهما الطعام .. فما إنفرد عمران بزوجه حتى قال لها ، والسعادة تهز كيانه :

– أبشرى ياحنة .. لقد استجاب الرب لصلاتك .. وتقبل دعاءك .

ودهشت حنة لما يقول زوجها ، ولم تكن دهشتها لأنها تنكر على الرجل كلماته .. ولكن دهشتها لأنها لم تكن أخبرته بما حدث لها بالأمس .

.. ترى من ذا الذى أنبأه ؟

قالت حنة وما تزال علامات الدهشة ترتسم على وجهها :

– كأنك تقرأ ما فى نفسى يا عمران .

– بل هى الحقيقة يا إبنة فاقود .. إنما أقرأ السعادة فى عينيك .. بعد أن قرأتها سطورا ناطقة .. وسمعتها كلمات تهتف بى ...

– ما أحسب إلا أنك تبادلنى مشاعرى ... كدت اللحظة أن أحدثك بحديث نفسى .

– فما أحسبك إلا صادقة .. وما هواتف نفسك خيالات أوهام – كما كان يتراءى لك فى الماضى – لكنها الحقيقة رأيتها بعينى .. نعم ياإبنة فاقود .. هى الحقيقة سمعتها ورأيتها .

– .... ؟!!

- أبشرى يا حنة .. لقد استجاب الرب دعاءك وسيمنحك ما تصبو إليه نفسك .

قالت حنة وقد كبرت الدهشة على وجهها :

- فمن أنبأك بهذا ؟!

- أنبأنى به ملاك الرب .. بهذا حدثنى .

- ملاك الرب ؟!

- هو كذلك بحق الرب .

- فحدثنى حديث ملاك الرب .. وما عهدتك إلا صادقا فى كلماتك .

قال عمران :

- لعلك تعلمين ياحنة أن اليوم .. كان نهاية أيام الصوم للرب ..

فقاطعته حنة :

- إنما أحسب هذه الأيام واحدا بعد الآخر .. حتى لقد تطول بى .. فلا أحسبها أربعين يوما .. بل أربعين عاما !!

- لا بأس ، فدعى الآن حديث قلبك ، وانصتى إلى .. كان اليوم هو آخر أيام صلاتى .. أحسست أنى عائد إليك .. تذكرتك .. استعدت صورتك أمامى .. خيل إلى أنك مازلت حزينة من أجل أمل يراودك .. تردد فى سمعنى تلك الكلمات التى كنت أسمعك تنادين بها ربك .. داعية أن يمنحك الولد .. كم كنت حزينا من أجلك .. يعلم الرب أننى أشاطرك آمالك .. ولكن الرجال دائما يخفون بعض آمالهم ، كما يحتبسون فى صدورهم كثيرا من آلامهم ..

من أجل هذا كله تذكرتك اليوم فدعوت الرب بكلمات نابعة من إيمانى به .. من تلك الأبوة التى أحملها بين جوانحى .. دَعَوْتَه .. فإذا كلماتى تصل إليه .. وإذا النور يملأ كل ما حولى ، وصوت البشير يقول لى :

- ياعمران .. لقد أرسلنى الرب إليك ، لأبشرك بأنه قد سمع دعاءك ودعاء زوجتك ، قم فامض إليها .. وأخبرها أنها ستحمل بمشيئة الرب .. وسيكون لحملها فى الوجود شأن يسرى ذكره على مدى السنين والأيام ..

كانت حنة تستمع إلى كلمات زوجها .. كأنما تستمع إلى ترنيمة من مزامير داوود .. أو إلى تراتيل الصلاة فى هيكل الرب .. وكم أثلج ذلك صدرها .. فمضت هى الأخرى تحدِّث زوجها بما حدث لها فى البرية وتنبئه بنذرها للرب ..

وأقبلت الجارية .. تقدم الطعام لسيدها وهى تستعيد أحداث الأمس ، وعرفت من أمرهما ما أسعدها .. وهمَّت أن تتركهما .. لكن سيدتها استبقتها .. لتشاركهما سعادتهما وأحاديثهما . وقضى الثلاثة بعض الليل فى حديث طويل ممتع .. ملىء بشتى الموضوعات .. لعلهم تحدثوا عن آبائهم وأجدادهم وآمالهم .. عن سارة امرأة إبراهيم الخليل .. حين وهبها الله إسحق .. بعد طول إنتظار .. عن يوسف يوم حفظه الله من السوء ، وصرف عنه كيد إخوته ، ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا .. عن موسى .. يوم أوحى الله إلى أمه أن تضعه فى صندوق ، وتلقيه فى اليم ، ثم أثلج الرب صدرها

بعودته إليها .. يرتضع اللبن من ثدييها .. ويرتضع معه حب الأم وحنانها بعد أن افتقدته .. ولعلهم أيضا تحدثوا فيما كان يتحدثون فيه .. عن الأيام الخوالى .. أيام أن كان للدين قدسيته ومهابته .. لكن الرومان قد نزعوا عن الشعب حريته ، وسلبوه أمنه .. سياط الحكام من الآدوميين ورجال هيرودس يلهبون ظهور القوم قسوة وظلما ومذلة .

وما بلغ الثلاثة من حديثهم إلى ذلك .. حتى قال عمران وهو يتأهب إلى فراشه :

- فليكن الرب أرحم بنا كما كان بالأمس رحيما بأجدادنا .. لعل القوم يلتمسون فى تعاليم ربهم طريقا يبعدهم عن طريق الغواية .. ويعيدهم إلى طاعة الرب .. إلههم .

وقالت حنة والجارية وهما تفترقان :

- آمين .



(٣)

أدركت امرأة عمران خلال بضعة أيام .. أن الرب قد صدقها ما عاهدها عليه على لسان ملاكه .. وإذا أملها يكبر فى أحشائها يوما بعد يوم .. ولم يكن ذلك ليصرفها عن صلاتها .. بل ليزيدها إيمانا بربها .. وتقربا إليه .. فقد كانت عاقرا .. فحملت .. وحيدة إلا من زوجها .. فغدا ستنعم بوليدها .. من أجل هذا مضت المرأة على عهدها للرب .. شاكرة مصلية له .. وكان زوجها يشاركها الصلاة حين تصلى .. ويشاركها الشكر حين تشكر .. ويتعهدها بالمزيد من الرعاية والعطف والحب .

ولم تنس حنة ذكريات ذلك اليوم .. حين مضت مع الجارية إلى البرية .. حيث الشجرة الوارفه .. والطائر الذى يزق صغاره .. ولهذا اعتادت أن تذهب من حين لآخر إلى ذلك المكان .. وكثيرا ما كانت تصطحب معها جاريتها .. بل لعلها فى مرة ما اصطحبت معها زوجها فأرته تلك الذكريات ، وحدثته طويلا عنها .. وكثيرا ما كانت حنة تجلس تحت الشجرة . تنظر إلى أعلاها .. كأنها تقرأ على أغصانها سطورا من أيام حياتها .. تتطلع إليها .. علها ترى ذلك الطائر حين يكون الصباح وهو يودع عشه وفراخه ، أو حين يكون المساء وهو عائد إلى صغاره .. يحنو عليهم .. يهبهم الحُبَّ ويطعمهم الحَبّ .

وتتابعت أيام الحمل .. صافية كأحلى ما يكون الصفاء .. سعيدة

كأحلى ما تكون السعادة ، مشرقة إشراقة الأمل ، والجنين يكبر ، وهى تتمثله مع كل لحظة من لحظات حياته .. طفلا صغيرا يرنو إليها بنظراته البريئة ، ثم تتخيله وقد غدا صبيا فى بيت الرب .. يدرس التوراة ويتعلمها .. ثم يمضى بها الخيال بعيدا .. فتراه رجلا يرعى هيكل الرب .. ويحمل مكانة أبيه بين قومه .

استيقظت حنة ذات يوم .. أيقظها صوت يهتف بها :

- ياحنة .. ستلدين أنثى .. وتسمينها مريم .

وبينما كانت حنة تمسح عن عينيها آثار النوم .. وتفتح عينيها على نور النهار ، وقد بدا لها من خلال كوة حجرتها .. كان ذلك الصوت ما يزال يتردد فى مسامعها :

- سمها مريم .. مريم .. مريم .

قالت كمن تحدث نفسها :

لا بأس .. فلتكن مشيئة الرب .. إن شاء منحنى ذكرا ، وإن شاء أراد فكانت أنثى ..

حتى كان ذلك اليوم الأول من شهر بشنس .. حين أحست حنة بعلامات المخاض .. فما هى إلا لحظات .. حتى وضعت جنينها .. فإذا هى طفلة صغيرة .. مشرقة السنا .. منبسطة الجبين .. ناضرة كالريحانة .. متلألئة كوجه الربيع .. صافية كقطرات الندى .. على ثغرها ابتسامة مضيئة .. يسر الناظر إليها ، فيزداد بنظراتها إيمانا .

استقبلت حنة ابنتها بلهفة الأم .. واحتضنتها بكل ما وهبها الله من

عطف .. فإذا إشراقة الأمومة تنير نفسها .. فتشرق فيها الحب .. وإذا هي تنظر إلى إبنتها .. إلى عينيها .. إلى وجهها .. إلى ابتسامتها ، فخيل إليها أنها تبتسم لها ، وإذا هي تحس كأن نسمات رقيقة عذبة تملأ صدرها .

لم تدر حنة كمن من اللحظات مرَّت عليها ، وهي تحتضن ابنتها .. ذكريات كثيرة تستعيدها فى ذهنها ، وخواطر عديدة تتوارد عليها .. وتذكرت ذلك اليوم الذى قطعت فيه عهدًا على نفسها .. يوم نذرت ما فى بطنها محررا لخدمة الرب .. لكنها اليوم قد ولدت أنثى .. ستكون فيما بعد فتاة .. وليست فتى .. إمرأة وليست رجلا .. فهل تستطيع أن تفى بنذرها ؟ ألا تحنث فى وعد قطعته على نفسها ، ويعلم الله كم كانت هى صادقة العهد .. ترى هل يقبل الرب ابنتها وفاء لنذرها ؟!

قالت حنة :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾[١] .

وترقرقت فى عينيها دمعتان كبيرتان .. لم تستطع أن تمسكهما فى مقلتيها ، فانحدرتا على خديها ، فأسرعت تمسحهما فى هدوء .. ربما كانت دموع الفرح ، أو لعلها كانت دموع الخوف .. الخوف من أن الرب لن يتقبل ابنتها ونذرها ، فما عهد القوم أن يقدموا الإناث

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣٦)

لخدمة البيت ولكنها .. لا تملك من أمرها وأمر ابنتها غير ما شاء لها الرب .

قالت حنة وهى ما تزال تتطلع إلى وجه ابنتها :

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾[1]

كانت الجارية تقف بجوار سيدتها .. تنظر إليها فتحس بما يتردد فى أعماقها .. بتلك الكمات التى تتحرك على شفتيها .. فاستجمعت شجاعتها وقالت .

- فلتكن مريم لك يا سيدتى عزاء فى وحدتك .. لعل الرب تقبلها منك ، وفاء لنذرك .. إنها وديعته التى استودعك إياها .. هديته إليك .. فليمنحها البركة لتكون بركة لك ولقومك .

فرفعت حنة رأسها إلى السماء وقالت :

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[2]

وسكتت .. سكتت حنة ، وما كان لها إلا أن تسكت ، فماذا تستطيع أن تقول .. ولكن بقى السؤال يلح عليها .. ترى هل يتقبل الرب نذرها .. إبنتها ؟

وجاءها صوت ملاك الرب يهتف بها .. يطمئنها .. يقول لها :

- ياحنة .. لقد استجاب الرب دعاءك .. تقبل هديتك .. تقبلها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنبَتَها نَبَاتًا حَسَنًا .

---

(١) ، (٢) سورة آل عمران الآية (٣٦)

كان عمران قد قدم من الخارج ، فأقبل على زوجه وإبنته ، فسعد بهما كثيرا .. وإن كانت نفس الخواطر قد حركت أفكاره .. هل يتقبل الرب نذره .. ابنته ؟ فمضى إلى بيت الرب .. يقدم له القرابين .. ثم نظر فإذا تاج نورانى يهبط من السماء ، فيغمر بضوئه كل ما حوله .. فعلم أن الرب قد قبل قربانه .

ومضت الأيام ..

ومريم تترعرع فى كنف والديها .. تأخذ مكانها فى الحياة .. كزهرة صغيرة .. تعلو غصنا أخضر من أغصان الحياة .. تجد من عطف والديها وحنانهما بقدر ما ملأت هى عليهما حياتهما إشراقا وبهجة .

لكن الرب بمشيئة يعلمها .. ولقدر كان قد قدره فى سجلات الخلود .. شاء أن يخطف الموت عمران .. فلحق بآبائه وأجداده .. إلى حيث يجد له مكانا مع الصديقين والنبيين .

وحزنت حنة ما شاء الله لها أن تحزن .. حتى كاد الحزن أن يجتث معه سعادتها .. لولا تلك الإبتسامة المشرقة التى كانت تطالعها دائما على وجه الصغيرة مريم ، وذلك النور الإلهى الذى يشع من عينيها الصافيتين .. فتثوب إليها آمالها ، وتسترجع بعضا من سعادتها ، وتنسى آلامها ، وتستشعر فى نفسها أمنا ، وتحس فى ذلك كله .. عزاء لها عن زوجها .

ولم يكن عمران قد ترك لزوجه وابنته من متع الحياة ما يكفيهما

فى حياتهما .. وإذا كان ذلك أمرا هينا بالنسبة للأم ، فماذا يكون بالنسبة لمريم .. الطفلة الصغيرة التى كانت ما تزال تستقبل الحياة .. وتشق طريقها بخطوات بطيئة وئيدة .. هى بلا شك فى أمس الحاجة إلى من يتولاها برعايته .. ينشئها تنشئة القديسين الصالحين ، لتصبح فيما بعد من سدنة الهيكل .. كم هى فى حاجة إلى من يتعهدها .. يبتعد بها عن نزوات الهوى ، ومفاسد اليهودية التى انتشرت فى ذلك الوقت .

لشد ما كانت حنة دائمة التفكير فى هذا الأمر .. لعلها تذكرت فيما كانت تتذكره وهى تجتر أفكارها .. صورة ذلك الطائر الذى رأته ذات يوم يزق صغاره .. أتراه ما يزال على عهده مع فراخه .. أم تراه قد عصفت به الحياة .. مات ..

أسئلة كثيرة كانت تتصارع فى ذهن حنة .. ولكن سؤالا واحدا كان دائم الإلحاح عليها .. ترى هل يقيض الرب لمريم من سيكون لها خير عوض عن أبيها .. فيتعهدها ويرعاها .. لتستطيع فيما بعد أن تمضى فى طريق الحياة ؟



(٤)

انتهى القوم من صلاتهم ، وما تزال رائحة البخور ، تعطر هيكل الرب بشذاها ، ويتسرب عطرها إلى الخارج .. حيث جلس بعض اليهود من رجال الدين .. يصلون لربهم .. يقدمون القرابين لإلههم .. يسألونه السعادة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة .

كان القوم فى ذلك اليوم قد انتهوا من صلاتهم .. فجلسوا يتحدثون فيما بينهم .. يتدارسون شئون دينهم ، وما أصاب قومهم من ضلال ، وما يفعله الرومان بشعب فلسطين .

وطال بالقوم الحديث .. حينا فى همس ، وحينا آخر فى ثورة ..

كانوا يتحدثون عن هؤلاء القوم من رجال الدين .. الذين باعوا أنفسهم للرومان بثمن بخس .. دراهم معدودات .. يأخذونها من سادتهم مقابل سكوتهم عن هذه المفاسد ، وتطرق الحديث بالقوم عن اقتراب موعد ظهور نبى جديد .. يخلّص الناس مما هم فيه من ظلم .

فبينما القوم كذلك .. وصلت إلى مسامعهم أصوات عذبة .. كلمات حلوة .. فيها تمجيد للرب ، تنشدها فتيات فى صفاء ونقاء ، واقتربت الأصوات ، كنَّ فتيات صغيرات .. يبتسمن فى إشراق .. فى عيونهن تلتمع آمال حلوة .. كنَّ مشرقات كوجه الربيع .. على شفاههن ابتسامات مضيئة .. كن فى موكب رائع تمشين فى خطوات فساح ، مقبلات على القوم .. منصرفات إلى أغانيهن .. كن يحملن

أغصان الزيتون فى أيديهن .. يتحلين بعقود من الأزهار على صدورهن .. كانت تتقدمهن سيدة قد ابتعدت بها الأيام عن خريف عمرها .. ومن ورائها الفتيات الصغيرات .. يسرعن جميعا إلى بيت الرب ، والمرأة جادة فى الطريق .. آخذة بيد طفلة صغيرة يتهلل وجهها إشراقا ونورا .

قال أحد الرجال وهو ينظر إلى الموكب المقبل عليهم :

ما أراه فألا حسنا .. صوت رقيق ، كلمات عذبة ، وفتيات مشرقات .. ولكن ... ما أمر هذه المرأة القادمة معهن ؟!!

قال الآخر :

- أتعنى تلك التى تمسك بيدها هذه الطفلة الملائكية ؟

وقال الثالث :

- كأنما هى تسعى بابنتها إلى عرسها !!

وقال الرابع :

- وحق الرب .. إنها حنة بنت فاقود .. زوج عمران .

فرفع زكريا عينيه الواهنتين ، وقد أيقظته كلمات صاحبه .. ثم نظر فيمن كن مقبلات .. فإذا حنة تسرع الخطا .. تسبق الموكب .

قال زكريا كمن يحدث نفسه :

- ترى ما أمرها ؟! أتراها جاءت إلى بيت الرب تذكر عنده زوجها .. وتصلى من أجله ؟!!

فما هى إلا لحظات .. حتى كان الموكب قد وصل إلى حيث يجلس الرجال من كهنة اليهود .

قالت حنة وهى تدفع إليهم مريم فى حنان :

- إنها مريم .. وهبتها للرب .. خالصة له ، فليكن منكم من يكفلها .

أقبل الرجال على مريم .. وكل منهم تشرق فى نفسه إشراقات الأبوة .. كل منهم يمنِّى نفسه أن يكون راعيًا لها ، وكانت مريم تنظر إليهم بنظرات نقية طاهرة .. تفيض صفاء وإشراقا ، فتكون عليهم بردا وسلاما .

تقدمت مريم نحو القوم ، وكان عطر البخور ما يزال يذكى الهواء حولهم ، وهم ينظرون إليها ... طفلة صغيرة ، لم تتخط عامها الثالث .. كم هى جميلة حقا .. لكنها - فيما يبدو على وجهها - راضية .. كأنما تحس فى ذلك طريقا جديدا لم تسلكه غيرها من بنات قومها .. أليست هى قادمة اليوم لتستقر فى بيت الرب !!

واختلف القوم .. أيهم يكفل مريم ؟! كل يطمع فى أن يحظى ببركتها ، وهذا الفيض النورانى الذى يشرق به جبينها .

قال أحدهم :

- لقد كان أبوها إماما لنا .. كان رجل فضل وعلم ، فهذه الطفلة وديعة لنا .. أمانة فى أعناقنا .. ذكرى طيبة من ذكرياته ، وهاهى ذى أمها جاءت بها اليوم تستودعها بيت الرب .

قال زكريا بن برخيا .

- فأنا أحق بها .. فلتكن فى كفالتى .. فى رعاية زوجتى . إن الرب لم يمنحنا الولد .. فهلا تركتم لى شرف كفالتها ؟!

وقال آخر :

- بل لعلى أحق بها .. فقد كان أبوها صديقا لى ، وكانت له على نعم كثيرة ، وكم تسعد زوجى حين تشاركنا مريم حياتنا ، فتكون أختا لأبنائى وبناتى .. وليكن لها مثلهم نصيب من المحبة والعطف .

وقال شاءول .. ذلك الكاهن الصغير ذو اللحية السوداء :

- ربما كنتما على صواب ، فقد تكون قريبتك يا زكريا .. وقد تكون ابنة صديقك يا أليعازر ، ولكنكما نسيتما أنها .. هدية إلى بيت الرب ، وأن الرب هو الذى يحكم فيمن يكون أحق بكفالتها ، فوالله إنى لأجد فى نظراتها أمرا لم أعهده فى غيرها من فتيات قومها .. فالرب يختار لها من يشاء .. ولنقترع عليها لنرى أينا أحق بكفالتها .

- وكيف السبيل إلى ذلك ، والوقت ليس وقت صلاة .

فرد آخر يقول :

- هذه أقلامنا ، فليكتب كل منا اسمه على قلمه ، ثم نلقى بها فى هذا الماء المقدس .. فمن طاف قلمه .. كانت مريم فى كفالته .

بينما راح القوم يكتبون أسماءهم على أقلامهم .. كان كل منهم يمنى نفسه ، وأسرع الرجال يلقون بأقلامهم فى ماء النهر .. وكم كان منظرا رائعا حقا شهده الناس فى ذلك اليوم .. وكانت جميلة حقا تلك المشاعر التى تنطق بها وجوه الرجال والفتيات ، واللحظات تمضى بطيئة حينا كما حسبها البعض .. سريعة كما خيل لآخرين ،

واختفت الأقلام فى النهر .. واحدا بعد الآخر .. اختفت إلا واحدا .. ترى من يكون صاحبه ؟!! ثم دوت صيحة أحد الرجال وهو يمد يده إلى صفحة الماء ، يلتقط ذلك القلم الطافى وهو يصيح :

- إنه .. قلم زكريا !!

وهتف الناس :

- ياله من شرف آثرك الرب به يا زكريا !!

وهتف آخرون :

- بل هى البركة شاء لها الرب أن تحل فى بيتك .

فأجابهم زكريا وهو يلوح بيديه فى فرح :

- ولعلها فاتحة خير على وعلى زوجى .

وحمدت حنة للرب حسن اختياره .. فلتكن مريم عوضا لأليصابات .. ولتكن سلوى لزوجها .



(٥)

عاشت مريم فى بيت زكريا .. تنعم بحنانه وحنان زوجه ، وتجد فى رؤية أمها من حين لآخر فرحة اللقاء وسعادة الأمومة .. حتى شاء الله أن تلحق حنة بزوجها ، ولم تكن مريم جاوزت الثامنة من عمرها ، وحزنت مريم لفراق أمها .. لكنها مشيئة الله .

وكبرت مريم ، ونما عودها ، وكانت قد تركت بيت زكريا إلى بيت الرب .. ترعى شئونه .. هكذا تفتحت عيناها فى أول إشراقة حياتها على نور الإيمان .. يضىء جوانب نفسها .. وكم طربت وهى تتنسم نسمات الحياة .. معطرة بأريج البخور .. ينبعث من هيكل الرب . ومع كل يوم .. كانت تتفتح عيناها على مزيد من آيات خالقها ، ودليل قدرته ووجوده .

فهذه الشمس تشرق فى السماء كل يوم .. تمنح العالم الدفء والنور ، وتختفى آخر النهار ، ليخلفها القمر فى حراسه الكون ، ويمنحه من الضياء بقدر ما وهبه الله .. يفرشه على العالم ، فيكسر به ظلام الليل .

وهذه النجوم المتناثرة فى السماء .. تلقى على العالم بصيصا من نورها .. حين يعتذر القمر عن الظهور ، فتمزّق بضوئها أستار الليل الحالك ، فما أبدع صنع الله وما أحكمه !!

وهذا الكون بكل ما فيه .. تمتد إليه يد الرب .. تحركه .. تهبه الحياة .. أو تمسك عنه الحركة حين يشاء الله .. ومريم الطاهرة ..

سليلة العلماء .. وحفيدة الأنبياء ، وهبة الله ، إنها ليست كفتيات قومها .. لقد نشأت غير نشأتهن .. إن لها فكرا واعيا ، وقلبا مملوءا بالمحبة .. إنها أبعد ما تكون عن أوهام الدنيا ودنس الحياة .

واتخذت مريم من محراب الرب مكانا تهدأ إليه .. تناجيه .. تصلى له .. عابدة .. قانتة .. ساجدة .. شاكرة .. وكان الرب بها كريما .. وكان زكريا يدخل عليها المحراب ، فيسعد بصورتها وهى بين يدى الله ، فيطمئن إلى أنه صدق ما عاهد الرب عليه ، واستطاع أن يصل بمريم إلى مصاف القديسين والصالحين .

وكان زكريا يدخل على مريم فى محرابها .. يسألها : إن كانت بحاجة إلى زاد تقيم به حياتها ، فتشير مريم إلى ما عندها من خير كثير ، وطعام وفير ، وفاكهة ناضجة ، فيهتف بها زكريا وهو فى دهشة من أمرها :

﴿ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ ﴾(١)

فتجيبه وكلها ثقة فى ربها :

﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾(٢)

نعم يا مريم .. إن الله يرزق من يشاء .. من يراه أهلا لرزقه .. شاكرا له فضله ، وأنت يا مريم من هؤلاء الذين يشكرون ربهم ، فليكثر الرب عليك نعمه ، وليجعل منك بركة لقومك ، وليكن لك فى الوجود آية .. آية من الله .

---

(١) و (٢) سورة آل عمران الآية (٣٦)

(٦)

مسح الربيع بيمناه على وجه الكون ، فاخضرت الأغصان ونمت البراعم ، وأورقت الأشجار ، وامتلأت نفوس الناس بالأمل .

وأشرق صباح ذلك اليوم من أيام شهر مارس .. فاستيقظت مريم مبكرة كعادتها .. ثم نظرت من خلال كوة بيت الرب إلى الأفق .. فأحست بنسمات الربيع تنعش صدرها ، وشعرت برائحة الهواء النقى .. يذكيها أريج الزهر والورود ، ثم مدت بصرها إلى ما حول بيت الرب .. إلى تلك الربا المحيطة به ، والسهول المنتشرة حوله ..

كانت الأرض قد كساها الربيع بثوب أخضر ، وما تزال حبات الندى .. لم تستطع أشعة الشمس أن تذيبها بعد ، والنسمات الرقيقة تعبث بأوراق الأشجار .. وإذا الكون كله ينطق بجلال الله وروعة إبداعه .. هنالك شعرت مريم ، بالسعادة تملأ جنبات نفسها .. هى سعيدة فى رحاب بيت الله ، سعيدة بتلك الصور الرائعة التى ترى فيها بديع صنع الله . وسمعت مريم فى ذلك اليوم هواتف نفسها .. تدعوها من أعماقها إلى مناجاة ربها .. وكثيرا ما كانت تفعل ذلك ، فانسحبت بعيدا عن النافذة إلى حيث تصلى لربها .. تدعوه :

– رباه .. أنت راعينى ، فلا يعوزنى شىء إلا رضاك ، ولا أجد لى ملجأ ألوذ به إلا ما أوردتنى إليه .. رباه .. مضى القوم بعيدا عنك .. نسوا أنك إلههم .. فيارب .. بحقك .. بحق هذا الكون

الذى أشرق اليوم بقدرتك ، ومنحت فيه الطبيعة يقظتها بعد طول رقاد .. بحقك يارب .. أعد القوم إلى حظيرة قدسك ، كما أعدت إلى تلك الأشجار أوراقها .. أغرس فى قلوبهم الأمل .. إمسح عن قلوبهم سطور الحقد التى سطرتها الأحداث على صدورهم ، كما مسحت بقدرتك على وجه الطبيعة ، فأشرق جمالا وبهاء .. ألهمهم يا رب الرشاد .. علّهم أن يبرأوا من الشيطان ، ويلجئوا إليك .

فما ارتفعت الشمس قليلا فى ذلك اليوم .. حتى كان زكريا قد أقبل عليها كعادته ، يزورها ليطمئن عليها ، وكان يرافقه ألعازر .. واحد من رجال الدين ، فما بلغاها .. حتى سمعا نداءها لربها .. فجلسا على غير بعيد منها .. حتى تنتهى من صلاتها ، فيسألانها أمرها .. فيما تسلكه فى غدها .

بينما كانت مريم فى صلاتها .. راح أليعازر وزكريا يتحادثان فى ذلك الأمر ، قال أليعازر لصاحبه :

– انظر إليها يا زكريا .. فهذه هالة من نور إلهى تحيط بها ، وفيض من الإشراق يغمرها ، ونور الإيمان يشع به وجهها .. كم هى جميلة ..!!

قال زكريا :

– لو علمت من أمرها ما أعلم يا أليعازر .. لأدركت المزيد من حقيقة هذه الفتاة ، وأمنت أن لها فى الوجود شأنا .. أليست هى ابنة عمران وحفيدة داود وربيبة بيت الرب ؟!

– كم هى مشرقة يا زكريا .. لعل فى قلبها اليوم إشراقا بحب .. أتراها

عازمة على الرحيل عن بيت الرب ، وقد بلغت من العمر مبلغ الفتيات ؟ أم لعلها ستبقى متعلقة به .. أم إنه الحب يملأ قلبها لفتى من بنى قومها .. يشاركها الحياة ، وينعمان بالسعادة معا ؟

قال زكريا :

– ما أحسب إلا أنها قد آلت على نفسها أن تقيم هنا .. لا تبرح بيت الرب .. نذرت نفسها لخدمته .

– بل لعلها تفضل نفس الطريق التى تتخذها الفتيات من بنى جنسها .. أن تصبحج زوجة تهدأ بجوار زوجها .

– أتعنى يا أليعازر أن تصبح مريم أمًّا .. تلد البنين والبنات ؟ ما أحسب ذلك ، وما أعلم من أمر مريم إلا إنها مقيمة ها هنا ، وما يستطيع أحد أن يحملها على ما تكرهه .

وقطع حديثهما مقدم يوسا أحد الكهنة من شيوخ القوم وكانت مريم ما تزال فى صلاتها ، فنظر إليها يوسا نظرة ملؤها التقدير ، ثم جلس يشارك زميليه الحديث .

قال يوسا :

– إنما أمر هذه الفتاة .. يحركه الرب بمشيئته .. كان ذلك أمرها بالأمس ، وما أحسب أن أمرها اليوم وغدا إلا بمشيئة الرب .. لا يؤامر فيه أحد ، ولا يتصرف فيه كاهن .

قال أليعازر ، وكأنه مصرٌّ على رأيه :

– لكنها ، وقد اجتازت فى رحلة الحياة شوطها الأول .. وها هى

ذى اليوم فتاة فى نضرة الصبا والشباب .. وما أحسب إلا أنها ترنو اليوم بطبيعتها كفتاة إلى تلك الحياة التى تحياها النساء .. شأنها فى ذلك شأن أمها وأترابها .

قال يوسا :

- ذاك رأيك .. أما نحن ، فلا نملك من أمر هذه الفتاة إلا أن نتركها ومشيئة الرب .. يصرِّفها كيفما شاء .

وطال الحديث بالقوم ، وتكاثر عددهم ، وارتفع الضحى ، وامتلأ بيت الرب بالكثير من رجال الدين جاءوا على عادتهم يتدارسون أمور دينهم .. لكن حديث اليوم أنساهم ما اعتادوا عليه فمضوا جميعا يتناقشون فى أمر مريم .. كل يقول رأيه ، وكل يسأل نفسه .. ماذا يكون مصير مريم ؟ وأى طريق تسلكه ؟!

كانت مريم قد إنتهت من صلاتها ودعائها ، فما لبثت قليلا حتى أقبل عليها زكريا ويوسا وبعض الكهنة ، فباركوا لمريم صلاتها ، وحمدوا لها تقواها ، ثم قال أحدهم :

- يا مريم .. لقد بلغت من السن مبلغ النساء فى قومك .. وما عرفناك إلا الطاهرة النقية الصالحة المؤمنة .. وغصنا طيبا لشجرة مباركة .. لقد رأينا أن نتحدث إليه اليوم فى أمر لا نملك أن نحملك عليه .. لكننا نسألكِ .. ولا نشق عليك .. فإن طاب لك البقاء هنا فى بيت الرب .. فهو أرحب بك .. تقيمين فيه ما شاء الله لك ، وإن رأيت رأيا آخر .. فتكونين زوجة لواحد من عشيرتك اصطفيناه لك

من الرجال ، تسعدين معه .. وتسعيان معًا فى الحياة .. وليكن أمركما كما كان أمر الرجال والنساء من قومك .

فنظرت مريم إلى الرجال نظرت استحياء وتساؤل ، وبدا عليها شيء من الحيرة .. لكنها ماذا تقول ، وكيف ترد على الرجال سؤالهم ؟

كانت الشمس قد علت فى السماء .. وملأت ردهات بيت الرب بنورها .. فأصابت بضوئها وجه مريم .. فبدا أكثر ما يكون إشراقا وبهاء وهى تقول :

- إنما أنا أمة الرب .. نذرتنى أمى لخدمة بيته .. وهأنذا بين أيديكم .. فاختاروا لى من سبل الحياة ما يهديكم الرب إليه .. فأى سبيل أراده لى الله .. رضيت به ومضيت فيه .

هنالك .. زاد القوم إيمانا بمريم لقد تركت أمرها لله .. لكنهم ماذا يفعلون ، وقد غدا الأمر فى أيديهم ؟

أعادت هذه الصورة إلى أذهان الرجال ذلك اليوم البعيد منذ سنوات .. يوم جاءت إليهم حنة تحمل مريم .. تسألهم كفالتها .. كم يذكر الرجال ذلك اليوم .. وكأنما كانت هذه الذكريات أنيسا لهم فى أفكارهم .. وأيقظ القوم من تفكيرهم صوت ذلك الكاهن العجوز يوسا وهو يقول :

- فماذا نحن فاعلون ؟

قال آخرون :

- نسأل الرب فى شأنها .

- ولكن .. كيف الطريق إلى ذلك ؟

فالتفت رئيس الكهنة إلى زكريا ، وقال له :

- يا زكريا .. قد ائتمنك الرب على مريم .. فأديت الأمانة ، فهلم فالبس مسوحك ، وصل للرب ، وإسأله ما أمر هذه الفتاة ؟. أنبقيها فى الهيكل .. أن نخليها إلى ما تمضى إليها أترابها ؟

شهد ضحى اليوم الخامس والعشرين من مارس ذلك الجمع من رجال الدين ، وقد اجتمعوا ينظرون أمر مريم .

وغاب زكريا .. يكهن فى هيكل الرب .. ثم عاد يقول :

- الرب شاء لمريم أن تمضى فى الحياة زوجا وأما .

مرة أخرى عاد سؤال يلحُّ على القوم .. من يكون زوجا لمريم ، ولم يكتحل قلبها بالحب لأحد ، ترى من يكون صاحب مريم .. زوجها ؟

قال زكريا وهو يمسح على رأس مريم فى حنان :

- أمرنى ملاك الرب أن نجمع شباب القوم وشيوخهم .. فليكتب كل إسمه ، فمن اختاره الرب ظهرت علامة .

وفعل القوم .. فقد كان كثير منهم يطمع أن يظفر بمريم .. كانوا يرون فيها مظهرا من مظاهر الجمال الملائكى الذى يشرق فى النفس بهجة وسرور .

وأمسك كل منهم بعصا .. أكثر من ألفى شخص .. ينتظرون علامة ملاك الرب .. يهتفون بالدعاء ، وزكريا يردد الأناشيد ..

حتى ظهر فى السماء طائر أبيض جميل .. أخذ يرفرف على القوم بجناحيه ، كأنما يشاركهم فرحتهم وسعادتهم .

وحط الطائر على إحدى العصى .. ترى من ذا الذى اختاره الرب لمريم ؟ وكم كانت دهشة الشباب والرجال أن يكون شيخا قد ناهز الثمانين من عمره .. إنه يوسف النجار .



(٧)

قالت أليصابات والعبرات تخنقها :

- تصحبك السلامة يا مريم .. حيث كان مسارك ، وحيث يكون مقامك ..

ثم التفتت إلى يوسف ، وهى تمسح بيدها ما خالط وجهها من دموع وقالت :

- لقد آثرك الرب بمريم يا يوسف ، فترفَّق بها ، وامنحها من ابتسامات السعادة ما يملأ حياتها .

وقال زكريا :

- ولا تنسوا أن ترسلوا إلينا رسلكم من الناصرة ، فإننا فى حاجة إلى من يحمل إلينا أخباركم ، ثم ليكن لكما فى الأجل الذى تعاهدتما عليه أمام الرب .. فرصة حب تقربكما .

وأحست مريم ، وهى تودع ديارها فى عين كارم وأرض حبرون .. أنها تودع ذكريات عزيزة عليها .. وكم تمنت لو طال بها المقام فى هذه الديار .. ولكنها .. لا تملك من أمرها إلا أن تمضى فى الطريق التى رسمها لها الرب .. مع يوسف .

كانت الطريق من أورشليم إلى الناصرة غريبة على مريم .. لم تمض فيها من قبل .. وإن كانت قد سمعت عنها كثيرا .. لكنها اليوم تمضى مع يوسف .. متجهان إلى ديار جديدة لم تألفها ، وإلى حياة جديدة

لم تكن تفكر فيها من قبل . ولا شك أن يوسف ومريم كان يمضيان فى الطريق .. سعيدين بهذه الرحلة .. إلى حيث الناصرة ، وإذا كانت الطريق طويلة شاقة .. إلا أنهما لا يشعران بالتعب ، فقد شاهدا الكثير مما أنساهما بعضا من مشاق السفر ..

فهذا ركب من رجال هيرودس .. يصطحبون معهم بعضا من فتيان فلسطين مساقين كالعبيد .. وتضاربت الأراء حول هؤلاء الفتيان .. قال بعضهم إنهم ثائرون على الوالى ورفضوا دفع الضرائب التى فرضها رجال هيرودس ، وزعم آخر أنهم عارضوا رجال هيرودس حين اختطفوا راحيل إحدى الفتيات الجميلات ليسوقها إلى قصره .

ومضى يوسف ومريم فى طريقهما .. يغذان السير حتى تتعب أقدامهما .. فيهدآن للراحة حينا .. يتجاذبان أطراف الحديث .. ربما كانت أحاديث الذكريات الماضية ، وربما كانت تطلعات المستقبل .. مستقبلهما كزوجين ينسجان معا خيوط حياتهما .. سعادة وإيمانا ..

قالت مريم ليوسف :

– كأنى بنا نسير هذه الرحلة ، كواحدة من رحلات هذه الحياة وحق الرب .. فإنى لأحسبها بداية لطريق طويلة .. ترى .. هل يكون لنا فى هذه الحياة ما كان لغيرنا ؟! لكم كان يطيب لى أن أبقى فى هيكل الرب .. عابدة قانتة .. لكن ..

–لكن ماذا يا مريم ؟! ألست سعيدة بهذا الإختيار ؟!

– يسعدنى ما شاء الرب لى .

- وسأكون لك نعم الزوج والأخ والأب .
- فلتكن هذه الرحلة بداية رحلة الحياة يا يوسف .
- كأنك يا مريم تتحدثين عن أمر يشغل بالك !!
- لست أدرى ، ولكن كثيرا من الصور تتراءى أمام عينى حتى لكأنى أذكر ذلك الحلم الذى رأيته ذات يوم .. يوم خطبتنا حين غفت عيناى لحظة لا علم لى بمداها ..
- فماذا يا مريم ؟
- لقد رأيت كأنى أسير فى طريق طويل .. أغذّ الخطا .. لا أعبأ بشىء .. حتى تلك الأشواك التى كانت توجع قدمى ، ولا التعب الذى كان يدركنى ، ولا تلك المخاوف التى كانت تراود خاطرى ، ولكنى ماضية ..
- ثم ماذا يا مريم بحق الرب ؟!
- ومع ذلك مضيت .. أتطلع إلى الشمس حتى يكون النهار ، وإلى القمر حين يقبل الليل .. هكذا كما نفعل الآن يا يوسف ..
- وماذا بعد يا ابنة العم ؟
- ثم خيِّل إلى كأن قبسا من نور قد هبط إلى .. امتدت إليه يدى .. أمسكت به .. تحول فى يدى إلى مشعل مضىء .. لم أر فى حياتى ضوءا مثله .. فرحت وسعدت .. ومضيت فى طريقى أسرع الخطا .. أهتدى بالنور .
- يا له من حلم عظيم .. ثم ماذا ؟
- وجدت نفسى كأنى فى حديقة غناء .. تكسوها خضرة نضرة .. تسير فيها جداول الماء نقية صافية .. يعطرها شذى أزهارها .. تملأها

أشجار الفواكه .. تدلت ثمارها فأقبل الناس ، يقطفونها .. شهية .. طيبة .

- وماذا عن الضوء يا مريم ؟

- لست أدرى ، ولكنه مضى .. كأنما كان نورًا يهدى الناس إلى هذه الحديقة .. حتى تبدو لهم ثمارها .. مضى هذا النور .. رأيته يبتعد .. يعلو ، والناس سعداء .

قال يوسف :

- لك الله يا مريم .. إنك نقية صالحة .. لكأنى بك تتحدثين عن آمال الناس وأحلامهم .. ورب الهيكل إنى لأشعر بأن لك فى الحياة شأنًا .

ومضى يوسف ومريم فى طريقهما وهما يستعيدان صور ذلك الحلم .. حتى وصلا إلى .. الناصرة .



(٨)

مرة أخرى .. عادت أليصابات إلى وحدتها ، بعد أن ودعتها مريم ويوسف ، فشعرت بفراغ كبير ، وهى التى حرمت الذرية ، وكانت - فيما مضى - راضية بذلك حين عوضتها مريم عما افتقدته ، لكنها الحياة .. مايكاد الإنسان يلمح فى سمائها نجما مضيئا .. حتى يمضى سريعا .. من أجل ذلك بقيت أليصابات فى دارها .. وحيدة إلا من تلك الذكريات التى كانت تذكرها بمريم .

لم يكن غريبا أن تعود أليصابات إلى حنينها .. إلى الأمل الذى يداعبها ، ولم يكن زوجها زكريا بأقل لهفة منها إلى الولد .. لقد اعتاد دائما - وهو الذى جاوز السبعين من عمره - أن يدعو ربه فى كل صلاة . صحيح أن زكريا قد بلغ مبلغ الشيوخ ، أصابه الكبر .. ضوى جسمه .. وهن عظمه .. غطى المشيب رأسه ، وانحنى كمن طال به البحث عن أمل ضائع فى الثرى .. لعلها أثقال الحياة التى حملها على عاتقه خلال السبعين عاما !! كم هى ثقال تلك الظروف التى كان زكريا يعيشها .. جسام تلك الأعباء التى يكاد ينوء بها كاهله .. كبار تلك الآمال التى يتطلع إليها من خلال سنيه الطويلة ، فعما قليل .. سيرحل إلى حيث آبائه وأجداده ، ولكنه لم يعقب ولدا ، ولم يخلف ذرية ، فهل يقبل الرب دعاءه ، ويمنحه إبنا يحمل بعده الراية ؟!

من أجل هذا كله .. بقى زكريا متعلقا قلبه بالله والأمل .. لم

يستطع اليأس أن يبلغ إلى نفسه ، فبقى يناجى ربه بعد كل صلاة .. يدعوه :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (١)

وجاء يوم عيد الفصح .. وكان على زكريا أن يؤم الناس للصلاة فى بيت الرب . ومنذ الصباح الباكر .. بدأت الوفود تصل إلى المدينة الكبيرة قادمة من شتى أنحاء فلسطين .. جموع كثيرة أقبلت على المدينة حيث هيكل الرب .. جاءوا جميعا للصلاة والتقرب إلى الله والدعاء له .

وبدت أورشليم فى ذلك اليوم ، وقد أخذت زينتها ، وماجت بالحياة والحركة ، وغصّت شوارعها بالزوار ، وهرع الناس إلى بيت الرب علّهم يحتلون مكانا قريبا من الهيكل .

كان بيت الرب على ضخامته واتساعه ، وتعدد ردهاته وممراته .. قد امتلأ بالناس ، وسرت فيه مظاهر مختلفة من شئون الدين والدنيا

---

(١) سورة مريم الآيات : (٤ ، ٥ ، ٦)

معا .. تنبعث فيه صيحات البائعين والتجار .. تخالطها دعوات المصلين وطالبى الحاجات ، وصرخات الأطفال .

وكان زكريا قد اصطحب معه زوجه أليصابات .. لبس أفخر الثياب ، وأشرق وجهه بابتسامة الرضا والأمل ..

وحينما كانت الشمس تسرع فى خطاها نحو المغيب .. وكان قرصها الذهبى يمضى إلى الأفق .. تسحب معها خيوط أشعتها الغاربة .. لم يكن فى بيت الرب موضع لقدم .. حينما اتجه زكريا بخطوات ثابتة إلى مذبح الرب ، فلبث فيه بعض ساعة .. قدَّم للرب ذبيحته بين نظرات الناس وترانيم الصلاة .. حتى إذا انتهى من ذلك أقبل على القوم ، فحياهم وهو يقول :

– أيها القوم .. اخشعوا لربكم .. يتقبل صلاتكم .. إدعوه يستجب لكم .. يرعاكم فى شئون دينكم ودنياكم .

وسكت الرجل قليلا ، وقد إستهواه موقف الناس ونظراتهم ، فأحس بغبطة عظيمة ، وزاد وجهه إشراقا وهو يقول :

– طهروا نفوسكم .. نقوا قلوبكم .

فما لبث طويلا .. حتى خطا بضع خطوات ، فأخذ بيمناه تلك المبخرة التى أعطاها له أحد خدام الهيكل ، ثم راح يصعد درجات السلم الإثنتى عشرة ، ورائحة البخور تنبعث ذكية عطرة .. يحملها النسيم إلى كل من فى البيت وخارجه ، والناس ينظرون إلى زكريا وهو يصعد الدرجات واحدة بعد الأخرى .. حتى إذا وصل إلى الدرجة الأخيرة .. اختفى داخل الهيكل .. حيث المكان المقدس .

هنالك أدرك الرجل أنه أقرب ما يكون إلى ربه ، فراح يدعوه بكلماته .. يردد تلك الترانيم التى حفظها عن أبائه وأجداده ، والناس من ورائه .. يرددون معه نفس الترانيم والصلوات ..

لحظات قصيرة مضت على الرجل .. فبينما هو كذلك أبصر ملاك الرب واقفا عن يمينه .. ضامًّا جناحيه .. فهزته الدهشة .. أصابته رعدة فى جسده .. حتى كادت المبخرة أن تسقط من يمناه ، وكاد أن يمسك تلك الكلمات على شفيته وهو يقول :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١)

وكبرت دهشة الرجل حينما رأى ملاك الرب ينظر إليه .. كأنما يطالع على وجهه سطور آماله ، وسمع من يقول له :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٢)

حاول الرجل أن يتكلم .. لكن الدهشة عقدت لسانه وهو يسائل نفسه .. أيمكن أن يتحقق ذلك ؟! . يكون له غلام وقد أصابه الكبر ؟ وماذايقول القوم عنه ؟!! يالها من هدية طال انتظاره لها .

عند ذلك تأكد زكريا أنها مشيئة الرب ، فشكر له فضله على هديته .. لكن صوت ملاك الرب عاد يقول :

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣٨).   (٢) سورة مريم الآية (٧).

- وسيكون نبيًّا .. لأنه يكون عظيما أمام الرب ولا يشرب خمرا ولا مسكرا .(٣) .

قال زكريا ، وقد عاودته مخاوفه بقدر ما زادت فرحته :

﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ (٤)

أجابه ملاك الرب :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ (٥) .

قال زكريا :

﴿ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ (٦) .

قال ملاك الرب :

﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (٧) .

اختفى ملاك الرب ، وراح زكريا يستعيد تلك الكلمات ، فلا يستطيع أن ينطق بها .. ترى ماذا يقول للناس ؟ وماذا يقول الناس عنه ؟!

---

(٣) أنجيل لوقا الفصل الأول الفقرة (١٥) .

(٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) سورة مريم الآيات (٨ ، ٩ ، ١٠) .

لابد أنهم سيتقولون عليه وعلى امرأته ، ويصبحان مضغة فى الأفواه ، ومثارًا للسخرية فى مجالس الناس .. لكن الرب الذى شاء له ذلك لن يتخلى عنه .

كان القوم مايزالون ينتظرون خروج زكريا من الهيكل ، وقد طال بهم الانتظار ، فأيقنوا أن أمرا ما قد وقع له .

قال أحدهم :

- لعل الرجل قد أعجزته شيخوخته عن الخروج إلينا ، فسقط مريضا فى هيكل الرب .

وقال آخرون :

- فما أعظمها من نهاية .. أن يلقى الإنسان ربه وهو فى رحابه !

وقال آخرون :

- فليصعد أحدنا المكان المقدس ، فلينظر أمر الرجل .

وصاح البعض :

- انتظروا قليلا ، فلعل الرجل قد استعذب التقرب من الله وطال به الدعاء .. لعله يدعو الرب من أجلنا .. ولعل الرب يستجيب لدعائه .

وشعرت أليصابات هى الأخرى بما بدا على وجوه الناس ، وعلى شفاههم ، وخشيت أن يكون مكروها أصاب زوجها ، وكادت أن تناديه .. لكنها سمعت صيحة القوم :

- هاهو زكريا .. قد أقبل عليكم .

ونظر الجميع فإذا زكريا قد اكتسى وجهه بالكثير من الإنفعالات : الخوف ، الفرح ، الأمل .. كان وجهه شاحبا .. وكانت خطواته ثقيلة وئيدة متهالكة ، وهو يهبط درجات السلم .. حتى تلك الكلمات التى اعتاد الكهان أن يتلوها عقب الصلاة .. لم يستطع هو أن ينطق بها أو يجيب على أسئلتهم .

قال قائل منهم :

- ما أمر هذا الرجل ؟ ولم تأخر فى الصلاة ؟ ما هكذا عهدنا بالكهان ؟

وقال آخرون ، وماتزال عيونهم شاخصة إلى زكريا :

- لعله الخير أصابه .

لكن الرجل لايجيبهم ، لا يستطيع أن يزيل علامات الإستفهام التى تتراقص أمام عيونهم .. كلهم يتساءلون .. لكن الرجل صامت لا يتكلم ، وما كان ذلك إلا بمشيئة الرب أو لم تكن آيته ألا يكلم الناس ثلاث ليال سويا .

ولاشك أن هذا الصمت قد ضاعف دهشتهم وهو يشير إليهم أن يستمروا فى صلاتهم .. عند ذلك أيقن القوم أن ذلك أمر .. واعتقد آخرون أن الرجل عاجز عن الكلام .. لكن هؤلاء وهؤلاء أجابوا الكاهن إلى طلبه ، فمضوا فى الصلاة .. يسبحون ويشكرون .

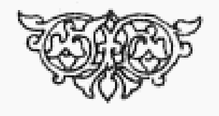
غادر زكريا الهيكل .. تصحبه زوجه أليصابات وبعض من أهل

قريته إلى داره ، فما انتهت الأيام الثلاثة حتى عرف الناس من أمر الرجل ما خفى عنهم وعرفت إمرأته تلك البشرى التى حملها إليه ملاك الرب .

قالت أليصابات وهى تمسح عن زوجها بعض مخاوفه :

– لتكن مشيئة الرب فوق كل مشيئة :

فما مضت بضعة أيام حتى أحست بأعراض الحمل ، فاستبشرت ، وحمدت ربها أن استجاب لصلاتها .



(٩)

كان يوسف يعمل نجارا فى الناصرة .. اتخذ لنفسه حانوتا يزاول فيه عمله .. يكسب قوته .. سعيد بذلك ، وأكثر ما تكون سعادته بجوار مريم خطيبته .. حين يعود إليها بما أفاء الله عليه من رزق ، فيجد عندها ما يثلج صدره .. يهدأ إليها .. يناجيها .. يمنحها حبه ، فتمنحه حنانها .. قلبان نقيان طاهران .. ينشدان معا أحلى أغنيات السعادة .

وكانت مريم – رغم فارق السن بينها وبين يوسف – سعيدة باختيار الرب لها ، قانعة بما وهبها الله من فيض نعمته .. تقضى يومها فى عملها الذى اعتادت عليه كثيرات من قومها .. حينا مع عمتها .. تشاركها طهى الطعام لها وليوسف .. وحينا تمضى إلى مغزلها .. تحركه ، لتغزل خيوطا دقيقة رائعة .. علها تكون ملبسا يدرأ عنها وعن يوسف برد الشتاء ، وكثيرا ما كانت تذهب إلى بئر القرية .. تصطحب معها بعضا من الفتيات إلى حيث يملأن جرارهن بالماء .. يخطرن فرحات سعيدات ، فإذا ما إنتهت أعمال المنزل .. هدأت إلى مصلاّها .. تناجى ربها .. تدعوه .. تشكره .. هكذا سارت الحياة بمريم ويوسف .

حتى كان ذلك .. حين ذهبت مريم مع من ذهبن إلى بئر القرية .. سعيدات بأغنياتهن .. ينشدنها .. يتحدثن عن آمالهن فى أزواجهن أولادهن .. ومضت الفتيات سعيدات عائدات بجرارهن .. لكن

مريم - لأمر شاءه الرب - تعثرت بعض الشيء وهى تملأ وعاءها .. أو لعل الحياء دفعها إلى أن تتأخر عن زميلاتها .. حتى وجدت نفسها وحيدة .. فشعرت بشيء من الخوف .

فبينما هى كذلك تفكر فى أمرها .. إذ أمامها فتى جميل الوجه .. مشرق المحيا .. تحيط به هالة من نور يقول لها :

- مباركة أنت فى النساء [١] .

كانت كلمات الفتى مفاجأة لمريم ، فأحست بالخوف والفزع ، وأصابها ما يصيب فتاة طاهرة .. حين يقتحم عليها وحدتها غريب .. يجترىء عليها ويفسد عليها عزلتها ، وحاولت مريم أن تطمئن نفسها . لعل الفتى الذى رأته مجرد أوهام .. خيالات .. لا ..لا .. إنه مايزال أمامها .. فيه لمسة روحانية ، ووجهه فيما تراه فيه براءة وطهارة .. ومع ذلك فما زال السؤال يلح عليها .. يحيّرها .. ما أمر هذا الفتى؟! وماحاجته ؟!

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [٢] .

لكن الفتى مايزال واقفا ، وماتزال نظراته تتجه إليها وابتسامة كبيرة تعلو وجهه .. تطمئنها ، فشعرت بشيء من الراحة وكان لسانها مايزال يلهج بذكر ربها ، كأنها ترجوه النجاة .. أن يحفظها من الفضيحة ، فإذا الفتى يقول لها :

---

(١) انجيل لوقا الفصل الأول فقرة (٢٨) .

(٢) سورة مريم الآية (١٨) .

﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[١] .

راحت مريم تتحسس الكلمات : رسول ربها .. ملاكه .. جاء إليها فمرحبا به .. ولكن ما أعجب مايقول .. أن يهبها غلاما ؟! ياللعجب !! أغلام لها وهى ماتزال عذراء لم يمسسها بشر ، أغلام لها وهى ماتزال بكرًا لم يتصل بها يوسف .. أيمكن أن يكون لها غلام بلا أب ؟! وماذا يقول القوم عنها ؟

قالت مريم تناجى ربها :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[٢]

وجاءها صوت ملاك الرب :

﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[٣] .

واقترب ملاك الرب من مريم ، ومايزال صدرها يضطرب خوفا ورهبة ، ثم نفخ فى جيب درعها ، وقال :

– وهاهى ذى أليصابات نسيبتك .. هى أيضا حبلى بإبن فى شيخوختها ، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا ، لأنه ليس أمر ، غير ممكن لدى الله[٤] .

---

(١) سورة مريم الآية (١٩) . (٢) سورة مريم الآية (٢٠) . (٣) سورة مريم الآية (٢١) .
(٤) انجيل لوقا الفصل الأول فقرة (٣٦ ، ٣٧) .

ثم ودعها ملاك الرب .. أختفى فجأة .. لكن أصواتا ما تزال تناديها :

﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[٥] .

لم تدر مريم كم من الوقت مضى عليها ، ولكنها عادت إلى دارها بعد ذلك وهدأت إلى ربها .. تصلى له .. حتى إذا انتهت من صلاتها .. شعرت كأن بلسما شافيا يملأ قلبها ، وأن نورا ربانيا يلف ماحولها .

وتذكرت مريم خطيبها .. ترى ماذا يكون أمره معها ؟ .. وكيف تخبره بما حدث ؟ وهل هو بمصدق لها ؟!! أتراه يمسك عليها .. أم سيشعر بغصه فى رجولته وكرامته ، فيسرحها ؟! يتخلى عنها .. ينسى العهد الذى قطعه على نفسه عند هيكل الرب .. فأى صدر حنون تلجأ إليه ، وتأنس به ، لتجد السلوى ، وحسن المشورة ؟!!

وتذكرت ماقاله لها ملاك الرب عن أليصابات ، وكيف استجاب الرب لدعائها فحملت .. لقد كانت لها أما وكان زكريا زوجها لها أبا فليس غير أليصابات تستطيع أن تكاشفها سرها .

لهذا قررت مريم أن تذهب إليها ، لتكاشفها بحقيقتها ، وليكن لهما معا لقاء ، وحديث .

---

(٥) سورة مريم الآيتان (٤٢ ، ٤٣) .

(١٠)

جلست أليصابات ذات يوم .. كعادتها فى صحن دارها .. تفكر فى أمرها ، وكان الحمل قد ثقل عليها ، ولعلها تذكرت مريم ، ولم تكن تعرف من أمرها شيئا منذ عودتها ويوسف إلى الناصرة ، وراحت تسائل نفسها .. ترى ما أمرها ؟ كم تود لو كانت مريم بجانبها تؤنسها فى وحدتها ، وتقف بجانبها ساعة ولادتها ..

فما لبثت المرأة طويلا فى أفكارها .. حتى سمعت صوتًا يناديها .. صوت رقيق .. إنها مريم .

أقبلت مريم على أليصابات تحييها ، وأقبلت هى الأخرى على مريم ترد تحيتها .. تحية السلام والحب .

ومع أن مريم كانت مجهدة من السفر وطول الطريق .. ومع ماكانت تعانيه من خوف .. إلا أنها نسيت بعض آلامها .. وفرحت كل منهما بالأخرى فرحا ملأ عليهما تلك اللحظات الطويلة التى احتضنت فيها أليصابات مريم .

لكن أليصابات فيما بدا على وجهها .. فى دهشة .. ترى ما الذى يدهشها ؟ أهو ذلك اللقاء المفاجىء ؟ أم تراه ذلك السؤال الذى يلح عليها ؟ ومريم هى الأخرى فى دهشة من أمر أليصابات التى بدا عليها مظاهر الشك والحيرة .. أتراها قد عرفت سر حملها ؟!!

قالت أليصابات ومازال الشك يبدو عليها :

– بحق الرب .. ألا ما حدثتيني يامريم عن حقيقة أمرك ؟!

قالت مريم فى خجل :

– ذلك ماحملني على المجيء إليك ، فوربِّ موسى ويعقوب ما وجدت أحدا خيرًا منك .. أهدأ إليك .. وأبثك حقيقة نفسي .

قالت أليصابات ، وقد كبرت الدهشة على وجهها :

– هو كذلك يامريم . لقد كنت أتذكرك قبل مقدمك .. ولكن أخشى أن يكون ظنِّي حقيقة يامريم .. فدعي ماجئت من أجله ، وأزيحي عني تلك الأستار التي تحجب حقيقة أود أن أعرفها منك . سؤال يحيرني منذ دخلت عليّ .

– وهل لي أن أكتم عنك سرا ؟!

– فحدثيني يامريم ، واصدق القول .. أأنت حامل ؟!!

فنظرت إليها مريم نظرة طويلة ، ثم قالت فيما يشبه الهمس :

– فكيف عرفت ذلك ؟!

وسكتت أليصابات ، وسكتت مريم ، وكل منهما تفكر فى الأمر .. لكن أليصابات عادت تقول فى عطف :

– أنت حامل يامريم ؟! أخبريني الحقيقة .

– هو كذلك .. ولكن بحق موسى ويعقوب ماخنت العهد ، ولكنه الأمر الذى لا أملك رده ، وهذا ما جئت اليوم أحدثك فيه .

– بهذا حدثتني نفسي ، منذ دخلت على ؟

– فكيف عرفت ذلك ؟

- أحسست بمن فى بطنى يركض لمن فى بطنك ، فذلك تصديق له .. مباركة أنت من النساء يامريم ، ومباركة ثمرة بطنك[١]

قالت مريم :

- لكأنى أجد فى كلماتك إجابة لسؤالى ..

- فأى سؤال يامريم ؟ فكم يطيب لى أن أحقق لك ما يسعد نفسك .

- ليس ماأبتغيه طلبا ، ولكنه أمر يدور فى خلدى ثم تأكدت حقيقته .. لقد كان ملاك الرب صادقا ، وما عهدى به غير ذلك .

لم تكن أليصابات تعرف شيئا عما حدث لمريم .. عن سر حملها ، فقالت فى دهشة :

- ملاك الرب ؟! ماذا تقولين يامريم ، وبماذا أنبأك ملاك الرب ؟!

فألقت مريم بنفسها فى أحضان أليصابات ، وقد غلبها شىء من بكاء ، وهى تقول :

- ذلك ماحملنى على أن أقطع الطريق . طويلة شاقة لأصل إليك .

كانت لهفة اللقاء قد أنستهما نفسيهما ، وكانتا ما تزالان فى صحن الدار ، فماسمعت أليصابات كلمات مريم .. حتى أخذت بيدها إلى الداخل حيث تستمع منها حقيقتها ، فما هدأتا حتى قالت مريم :

- تعظم نفسى للرب ، وتبتهج روحى بالله مخلصى ، لأنه نظر

---

(١) انجيل لوقا الفصل الأول فقرة (٤٢)

إلى تواضع أمنه ، فهو ذا منذ الآن تطوبنى جميع الأجيال ، لأن القدير صنع بى عظائم ، واسمه قُدُّوس ، ورحمته إلى أجيال وأجيال للذين يتقونه[١] .

ثم أخذت مريم تحكى لأليصابات ماكان من أمرها مع ملاك الرب يوم ظهر لها ، وأنبأها بنبأ حملها روح من ربها ، ثم كيف أخبرها بحمل أليصابات ، وكانت أليصابات تستمع لمريم ، وصور كثيرة تتراءى أمام عينها .. صورة زوجها زكريا ، وما حدث له فى هيكل الرب .. يوم عيد الفصح منذ بضعة شهور .

كان الحديث بينهما طويلا .. حاولت أليصابات أن تمسح عن مريم بعض مخاوفها وهى تقول :

- صدقينى يا مريم ، لقد حسبتك قد اقترنت بيوسف ، فأصبحتما زوجين قبل أن يفىء الأجل الذى تعاهدتما عليه .

- كلا ، فما زلنا على العهد ، وما أدرى ماذا يكون شأن يوسف حين يعرف الحقيقة .. ذلك مايؤرقنى ، فهل لك أن تنيرى لى الطريق ؟!

- هو كذلك يامريم ، لقد كان الرب معك دائما فلن يتخلى عنك ، وأنت الفتاة الطاهرة .. العابدة .. سليلة يعقوب .. مباركة أنت من النساء يامريم ، ومباركة هى ثمرة بطنك .

أقبل زكريا .. فإذا بمريم عند زوجه ، فسعد بلقائها ، وسعدت

---

(١) انجيل لوقا الفصل الأول الفقرات (٤٦ ، ٥٠) .

بلقائه .. لكن الرجل فيما بدا على وجهه كان فى دهشة .. لقد سمع ما كانت تقوله زوجه . مباركة أنت من النساء يامريم ، ومباركة هى ثمرة بطنك !! وحاول الرجل أن يصرف نفسه عن أفكاره ..

خيِّل إلى زكريا أن يوسف قد انفصل عن مريم .. أن شيخوخته لم تقنعها أن تكون زوجة .. لكن مريم لم تلوِّثها أفكار بنات قومها ، فلماذا فعلت ذلك .. لماذا ترفض إختيار الرب لها ؟ ثم ماذا عن حملها وثمرة بطنها ؟!

وأدركت أليصابات ما بدا على وجه زوجها ، فأسرعت تحدِّثه عن حقيقة مريم : عن ملاك الرب وعن خوفها من يوسف .

وإذا كان زكريا مؤمنا ببراءة مريم وطهارتها .. لكنه كان خائفا عليها من قومها فأخذ يطمئن خاطر مريم يخفف عنها مخاوفها .

قال زكريا وكانت ما تزال مريم تنظر إليه كأنها تنتظر حكما ببراءتها :

- هونى عليك يا مريم ، وليمنحك الله الطمأنينة .. إن ذلك يذكرنى نبوءة أشعياء النبى (الرب يعطيكم علامة : ها إن العذراء تحبل وتلد إبنا)[1] .

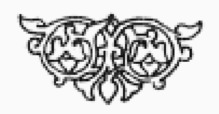
وبقيت مريم فى بيت زكريا .. تشارك أليصابات وزوجها حياتهما وصلاتهما .. حتى كان ذلك اليوم الذى وضعت فيه أليصابات وليدها .. يحيى أو يوحنا فملأت الفرحة أرجاء الدار ، وسعدت

---

(١) انجيل متى الفصل الأول الفقرة (٢٣) .

أليصابات وسعد زكريا ، وسعدت معهما مريم ، فقد تأكدت أن ملاك الرب كان صادقا فى بشراه لها .

فما هى إلا أيام قليلة .. استردت أليصابات قوتها ، فودعتها مريم عائدة إلى الناصرة . وقد قررت فى نفسها أمرا .



---

(١) انجيل متى الفصل الأول الفقرتان (٢٠ ، ٢١) .

(١١)

لا تستطيع مريم أن تكتم عن يوسف سرها ، فهو خطيبها ، فلابد من أن تكاشفه بحقيقة أمرها ، فإن شاء وقف بجانبها ، وإن شاء تخلّى عنها .. لكن مريم .. لا تدرى ماذا تقول ليوسف ، وكان هو الآخر فى حيرة من أمر مريم .. أكثر من علامة استفهام تبدو أمام عينيه .. تؤرق تفكيره .. ترى .. ما هذا الذى يبدو عليها وهى ما تزال عذراء ولم يمسها بعد ؟.. إنه خطيبها ، وهو أكثر من عرفها ، فعرف فيها الطهارة والاستقامة .. لكنه يرى بعينيه ما يثير دهشته .. أيمكن أن يكذب عينيه ؟ وهل يطاوعه قلبه أن يتهم مريم فى طهارتها وعفافها ؟!!

وقرر يوسف فى نفسه أن يطلع مريم على سريرته .. أن يفصح لها عن خواطره وشكوكه ، وكانت مريم هى الأخرى قد قررت أن تبوح ليوسف بسرها .

عاد يوسف ذات يوم . وتعب النهار قد أنهكه ، والشك قد أضناه ، فجلس إلى مريم يحادثها وتحادثه ، ولكنه كان يخشى أن ينفلت لسانه ، ولاحظت مريم ما يعانيه يوسف ، فاقتربت منه وأضاءت بابتسامتها نور الإيمان فى قلبه ، حتى كادت أن تبتعد عنه ظنونه .. لكنه أثر أن يضع حدًا لأفكاره .. فقال لها :

– مريم يا ابنة العم .. لست أدرى كيف أنبئك بشىء حرصت فيما مضى أن أميته فى نفسى .. لكنه أقض مضجعى ، وغلبنى على

أمرى .. فهل لك أن تزيحى عنى أستار الحيرة التى تظلل تفكيرى ؟
- لك ما تشاء يايوسف .. حدثنى بحق الرب ما يؤرقك .
- فحدثينى يا مريم . أيمكن أن ينبت نبات بغير بذرة ؟!

قالت فى ثقة :
- نعم هو كذلك بحق الرب .
وعاد يوسف يقول :
- أيمكن أن تنمو شجرة بلا ماء ؟!
- نعم هو كذلك وحق الرب .

فتردد يوسف ، وحاول أن يسكت ، لكنه استجمع شجاعته وقال :
- فهل يولد ولد بلا أب ؟!

عند ذلك أدركت مريم ما يعنيه يوسف .. لكنها لا تملك إلا أن تجيبه على سؤاله فقالت :
- نعم يا يوسف .
- نعم ؟!! ماذا تعنين يا مريم ؟ أيولد ولد بلا أب ؟!!
- ألم تعلم يا يوسف أن الرب خلق آدم من غير أب أو أم ؟ أليس الله على كل شىء قدير ؟

نظر يوسف إلى مريم نظرة طويلة ، وهو يتذكر كلماتها ، فالرب قد خلق آدم بلا أب ولا أم .. هذه حقيقة .. ولكن هل يمكن أن تكون ظنونه حقيقة أيضا ؟! قد تكون مريم صادقة فى دعواها .. لكن

أتراها تفعل ذلك حتى تخفى حقيقة الذى يكبر فى أحشائها ؟! إنه يعرف طهارتها ، ولكنه لا يريد أن يكون حديث قومه .

وشعرت مريم بما يدور فى ذهن يوسف ، فراحت تحكى له ما حدث لها يوم جاء ملاك الرب وبشَّرها ، ثم ما كان من أمرها مع أليصابات ، وكيف كان ملاك الرب صادقا مع زكريا ببشراه .

أخذ يوسف يسائل نفسه .. إن كانت مريم صادقة فيما تقوله فماذا يكون أمره وأمرها بين قومها ؟ وماذا يقول الناس عنهما ؟.. لن يرحمهما الرجال والنساء من كلمات السوء .. سيتهمون مريم فى طهارتها .. ويستنكرون على يوسف رجولته .. يا لقسوة الظروف !! ليته رفض خطبة مريم من قبل ، فهو شيخ ناهز السبعين ، وهى فتاة ما تزال فى ربيع عمرها .. لكنها مشيئة الرب .. ترى ماذا يفعل يوسف ؟. كم يضنيه التفكير ومريم تنظر إلى وجهه كما ينظر المتهم الواثق من براءته إلى ذلك القاضى لينطق ببراءته .. لكن يوسف كان قاسيا فى حكمه .. فقرر أن يتركها .. يخليها .. يقطع تلك الرابطة التى تربطه بها .. إنها حامل وفى بطنها جنين سيخرج إلى الوجود يكشف أمرها ويهتك سرها !!

وكان يوسف – وما تزال بقية من حب فى قلبه لمريم – حريصا على ألا يفضح سرها ، فقرر أن يتخلى عنها سرا .. فليكفها الفضيحة .. إنها فتاة طيبة ولا شك ، فليكن الرب معها إن كانت بريئة ، وليغفر لها إن كانت قد جانبت الصواب !!

وبقى يوسف وحده يفكر فى أمره ، وكانت مريم ما تزال تحاول

أن تخفِّف عنه هول المفاجأة .. لكنها لا تدرى شيئا عما إنتواه نحوها .. ثم هى لا تملك إلا أن تهرع إلى ربها .. تصلى له .. تدعوه أن يصرف عن يوسف مخاوفه وشكوكه ..

وابتعد يوسف .. مضى فى طريق لا يدرى إلى أين يسير ، ولا كيف ينتهى به المسير .

كانت الشمس ما تزال فى السماء .. ترسل على الكون بعضا من حرارتها ، فجلس يوسف تحت ظل شجرة .. علَّه يجد فيها برد الهواء ، فبينما هو كذلك .. لعب الغمض بجفنيه لحظة لا يعلم مداها إلا الله ، فسمع صوت هاتف يهتف به :

— يوسف يا ابن داوود .. لا تخف أن تأخذ مريم إمرأتك ! فإن الذى حملت به هو من الروح القدس ، وستلد إبنا يخلص شعبه من خطاياهم[1] .

استيقظ يوسف من غفوته : أيقظته نسمة رطبة .. هبت على وجهه فمسحت عن عينيه آثار غفوته .. لكن صوت الهاتف كان صداه ما يزال يتردد فى سمعه .. يأمره أن يمسك على مريم .

وعاد يوسف يفكر فى الأمر ، وتذكر بعضا من تلك الكلمات التى قرأها فى التوراه .. تذكر ما جاء فى سفر أشعياء النبى : ها إن العذراء تحبل وتلد ابنا .. إذن .. فقد تحققت النبوءة .. وهذه هى العذراء مريم ، وغدا سيكون وليدها نبيا .. هكذا تقول النبوءة ، وهكذا قال ملاك الرب لمريم يوم بشرها .

(١) انجيل متى — الفصل الأول الفقرتان (٢٠ ، ٢١) .

لم يعد أمام يوسف إلا أن يبقى على مريم .. فرفع رأسه إلى السماء ، وقال وهو يأخذ طريقه عائدا إلى مريم :

- نعم .. سأحفظ لها العهد - أشهدك يارب أنى سأكون بجانبها أدرأ عنها كل مكروه .. حتى إذا ولدت إبنها كنت لهما ومعهما أقاسمهما الحياة والصلاة .

وحينما عاد يوسف إلى مريم .. وجدها ما تزال تناشد ربها .. تصلى له فأخبرها بما كان من أمره وأنه ما يزال على عهده الذى عاهد عليه الرب ..

هنالك .. أحست مريم أن رحمة الرب تتابعها فى خطواتها ، فبسطت يديها تدعو ربها :

- رباه .. تجلت حكمتك ، أنت راعينى ، فلا يعوزنى شىء .. أنرت لى طريق حياتى ، فلتكن معى دائما .. لتكن عونى .. حتى يأتى أمرك ، وتخرج إلى الوجود كلمتك .

كان يوسف ينظر إلى مريم نظرات تفيض حنانا عليها ، وإيمانا بها فقد رأى اليوم صورة جديدة أكبر من تلك التى عرفها من قبل ، وكان يطالع فى صفحة وجهها سطورا ناطقة بنور الإيمان .. حتى إذا انتهت من دعائها .. استنهضها ، مؤكدا إيمانه بها وتقديره لها وحبه حبا يحدوه الأمل ويشرق به الصلاح .. فياله من حب ، وما أعظمه من رباط يربط بين مريم ويوسف .

(١٢)

أحست مريم كأنها نفضت عن كاهلها حملا كان يثقلها ، فقد عرف يوسف كل شىء ، وآمن ببراءتها ، واستأنفا معا حياتهما التى ألفاها فى الناصرة فمريم - كعادتها - تقضى يومها فى طاعة الرب ، فإن خلت إلى نفسها ، أمسكت بمغزلها .. بينما لسانها يهتف يذكر ربها . وهى بهذا وذاك سعيدة راضية .

أما يوسف .. فقد كان يمضى يومه فى حانوته الذى اتخذه على مقربة من داره ، حيث يقوم بعمله كنجار .. يكسب قوته ، ليعود إلى مريم آخر النهار بما أفاء الله عليه من رزق .

عاد يوسف ذات يوم إلى مريم ، وقد بدت على شفتيه بضع كلمات يريد أن ينطق بها .. لولا أن شيئًا ما يجعله يمسكها ، فأدركت مريم بشفافية إحساسها ما يبدو على وجهه ، فابتدرته قائلة :

- أجديد يا ابن العم ، تريد أن تحدثنى فيه ؟

- هو كذلك يا مريم . ولكن .. بحق الرب فإنى أخشى أن يكون فيه ما يحزنك .

- إنما كل شىء بمشيئته الرب يا يوسف ، ولست أرى فى مشيئته إلا ما يرضاه لى ، فحدثنى بما شئت .

قال يوسف :

- لقد نادى المنادى ، وتحدث الناس اليوم بأمر الوالى .. أن يسجل كل واحد اسمه فى سجلات أعدوها لذلك .

- وماذا يهدف الوالى بأمره يا يوسف ؟!
- إنها مشيئة سيده أغسطس ملك روما .. أن يكتتب كل الشعب فى مسكونته .
- وماذا يا ابن العم ؟ ما أرى فى ذلك بأسا .

فمسح يوسف بيده على لحيته ، وتردد قليلا ، ثم قال :
- فإنما نحن من مدينة داوود ، ولابد أن نكتتب فى مدينتنا .. فى أورشليم ، والأمر فيما يبدو يصعب تحقيقه ، وأنت على وشك أن تضعى طفلك وهذا ما يقلق خاطرى .

قالت مريم فى ثقة وإيمان :
- إنما هى رحلة إلى ديارنا وأهلنا فى حبرون وأورشليم وعين كارم وبيت لحم نلتقى بهم هناك .. تعرف من أمورهم ما غاب عنّا . كم أشعر بحنين إلى بيت الرب .. إلى الهيكل المقدس ، أصلى فى محرابه .. هلم يا يوسف ، فأنى أرى فى ذلك خيرا .

ما هى إلا أيام قليلة .. حتى كانت مريم ويوسف يشدان الرحال فى طريقهما إلى أورشليم .. يشاركهما فى رحلتهما كثير من هؤلاء الذين خرجوا مثلهم .. حتى امتلأت الطرق والأودية بالمسافرين .

كانت الجموع العظيمة من الناس .. يتسابقون فى طريقهم .. يتسامرون ويتحدثون.. أحاديث كثيرة .. ربما كانوا يتحدثون عن ذلك الوالى الذى كبّدهم كثيرًا من المشاق ، وعن هيرودس ذلك الحاكم الآدومى الذى يذيق أهل فلسطين الظلم ، ولعل بعض هؤلاء المسافرين كانوا يتحدثون فى دينهم وما آل إليه أمرهم منذ أهملوا تعاليم

ربهم ، ولعلهم تحدثوا عن ذلك الخبر الذى انتشر بين الناس عن قرب ظهور نبى جديد .. يعود بالشعب إلى الطريق السليم .

ها هو ذا يوسف يتقدم مريم ، وهو ممسك بمقود دابتها حينا ، وآخر يتبعها .. يجهد نفسه من أجل راحتها .

ومع مشقة الطريق ووعورته ، ومع ما كانت تشعر به مريم من ثقل حملها .. إلا إنها كانت تجد فى كل شىء صورة من إبداع خالقها .. فهذه زهرة جميلة .. تتألق فوق غصنها فى إشراق وجمال كأنها تبتسم للغادين والرائحين .. وتلك نبتة ألقيت .. بالأمس بذرة .. فصارت اليوم نبتا أخضر وغدا تخرج زهرة يفوح عطر شذاها ، ثم ثمرة يطيب مذاقها ، وهذه الشمس فى السماء كانت فى الصباح الباكر .. ترنو إلى العالم من خلال شرفتها ، ثم أخذ قرصها يكبر ويملأ الكون نورًا وضياء .. يكسوه كساء فضيًا حينًا ، وذهبيًا لامعا حينًا آخر .. ثم هى بعد ذلك تميل نحو المغيب .. لتتجه إلى مستقرها ، تسحب معها خيوط أشعتها الغاربة .. تلملمها كما تفعل العروس بأطراف ثوب عرسها ، وشىء من الخجل يغطى جبينها ، والأمل يملأ قلوب الناس فى أن تعود إليهم فى اليوم التالى .. وهى أكثر ما تكون إشراقا ونورا وبهاء .. ألا ما أبدع حكمه الله وما أعظم قدرته !!

وعندما وصل الركب إلى مشارف مدينة داوود مع غروب الشمس .. كانت مريم ويوسف قد أجهدهما السفر وطول المسير .. فما كادا يصلان بيت لحم حتى حطا رحالهما ، ليستريحا قليلا ،

وأشفق يوسف على مريم ، فمال بها إلى كهف صغير تستريح فيه .. حتى يعود إليها .

مضت الشمس إلى مغربها ، وأقبل الليل ، فبسط أرديته على الكون .. ولم يعد يوسف من المدينة .. فأحسست مريم بالوحدة والخوف .. لولا ذلك الصوت التى يتراءى لها .. يطمئنها .. لكن شيئا ما .. تحس به ، ولم يكن لها به سابق عهد .. إنها علامات المخاض التى تشعر بها المرأة حين يقترب موعد خروج جنينها إلى الحياة .

إذن فقد أصبحت مريم على موعد لقاء مع إبنها .. وما هى إلا لحظات .. حتى يشرق على العالم بنوره .. أليس هو روح من الله وكلمته .. فبينما هى كذلك .. سمعت صوتًا يناديها :
- لا بأس عليك يا مريم ، فإن كان يوسف قد تركك .. فإن الرب معك .

عند ذلك رفعت يديها إلى السماء فى ضراعة .. تشكر ربها ، فأبصرت جذع نخلة قائمة على مقربة منها .. فخطت إليها خطوات بطيئة .. حتى إذا وصلت إليها .. إلى النخلة .. راحت تحتضنها كلما أحست بآلام المخاض .

أقبل يوسف ، ولم يكن قد استطاع أن يعثر على مكان فى المدينة المزدحمة فراعه منظر مريم والمخاض يهزها ، فأدرك أمرها ، فأسرع عائدًا إلى المدينة يبحث عن قابلة تساعدها فى أمرها .

ومرة أخرى عادت مريم إلى وحدتها ، ثم شعرت كأن سحابة كثيفة من الخوف تتزاحم فى رأسها .. لقد تذكرت قومها .. ستعود إليهم ومعها وليدها .. دليل جريمتها حسب ظنونهم ، ترى ماذا سيقولون لها وماذا تقول هى لهم ؟!

قالت مريم فى نفسها :

﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[1]

لا بأس عليك يامريم .. فالرب قد شاء لك الحياة .. ليكون لإبنك شأن كبير .. رسول الله إلى قومه .. يهديهم الطريق المستقيم .

ولمعت فى الأفق هالة من النور .. أضاءت كل ما حول مريم ، وفى تلك اللحظة إنفصل عن مريم جنينها .. طفلا جميلا .. يبتسم لأمه إبتسامة مشرقة .. ملأت كل ما حولهما إشراقا وضياء .

واستقبلت مريم وليدها بلهفة الأم الحانية ، فاحتضنته بين ذراعيها وما يزال النور يضىء ما حولها ، وابتسمت له .. ابتسامة أودعت فيها كل ما تحمله فى قلبها من معانى الأمومة ، ثم تطلعت إلى السماء كأنما تنادى ربها ، ولشد ما كانت دهشتها حين رأت النخلة التى كانت يابسة منذ لحظات .. قد استحالت بقدرة الرب .. إلى شجرة باسقة .. إخضرت أغصانها .. وتدلت ثمارها على غير موعد .

يالله .. يا لحكمته ! كم تشتاق نفسها إلى حبات البلح .. تعوض

---

(١) سورة مريم الآية (٢٣)

ما فقدته من جهد المخاض ، فهل يكون الرب رحيما بها ، فيدركها ببعض منه وبضع قطرات من الماء ؟!

وكان الرب بمريم كريما .. حين جاءها صوت ملاكه ينادى :

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾[٢] .

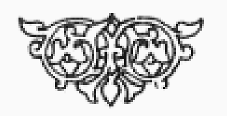
وفعلت مريم ما أمرت به ؛ فراحت بيديها الواهنتين تمسك بالنخلة .. تهزها هزات خفيفة ، فإذا ثمرات البلح الرطب تتساقط عليها .. فتمد يدها وتأكلها .. حلوة .. طيبة المذاق ، ثم تنظر عند قدميها ، فإذا جدول صغير .. ينساب ماؤه عذبا ، فارتوت ما شاء لها الله ، واستعادت بذلك بعضا من قوتها ، فقامت إلى إبنها ، وغسلته ، ثم قمطته ، وانتحت به إلى مزود بقر ، فاتخذت من أرضه له مهدا ، ومن سقفه غطاء .. كان ذلك المزود عبارة عن كهف صغير فى ظرف من أطراف بيت لحم .. يتخذه الرعاة مكانا للراحة .. لكن الرعاة فى تلك الليلة - لأمر أراده الرب - أهملوا مزودهم .. فلم يعودوا إليه .. هكذا شاء الرب ليكون هذا المزود مهدًا لنبى جديد .

---

(٢) سورة مريم الآيتان (٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) .

وهدأت مريم مع وليدها .. وقد ملأ النور كل ما حولهما ، وسمعت أصواتًا ملائكية تهتف بأغنيات الفرح والمحبة والسلام .

وأقبل يوسف .. يصطحب معه سالومة .. القابلة .. لكنهما ما كادا يصلان .. حتى أبصرا ذلك الفيض من النور .. يلف المكان بغلالة فضية رائعة .. فأدرك يوسف أن الرب قد هيأ لمريم الخير ، ونظرت سالومة إلى مريم ووليدها وتعجبت لأمر لم تعرف من قبل ، ولمحت فى عينى الوليد نورًا وإشراقًا .. فقررت أن تبقى مع مريم وابنها ويوسف .. ترعى شئونهم .. لقد نذرت نفسها لمصاحبتهم ، ولتشاركهم الحياة .. حياة المحبة والأمل والسلام .



(١٣)

كان السكون يلف الكون .. بينما جلس بعض الرعاة فى مزاود ماشيتهم .. على غير بعيد من مريم .. يطاردون النوم عن أجفانهم .. يتسامرون ويتجاذبون أطرف الحديث ، ولأن الوقت كان شتاء .. والهواء البارد يلفح الوجوه .. فقد أشعل الرعاة النار .. وراحوا يلتمسون الدفء من حرارتها ، ويستلهمون الأحاديث من ألسنتها اللاهثة أو بصيص بقاياها المتقدة .

قال أحدهم وهو يفرك يديه وقد أحس بشىء من الدفء ، أو كمن يطلب المزيد منه :

- كم يسعد الإنسان بالدفء يسرى فى جسده .. لكم كان الرب رحيما حين منحنا الشمس لتهب لنا الدفء نهارًا ..

فقاطعه الآخر ضاحكا :

- والنار ، لتهبنا الدفء ليلاً .

بينما أردف ثالثهم :

- ومن أجل هذا .. اتخذ بعض الناس من النار إلها لهم ، واتخذ آخرون من الشمس آلهة لهم .. أما نحن فلنا فى رب موسى خير إله نعبده ، ونسأله أن يعيد إلينا دفء الحرية التى انتزعها الرومان منا .

فنظر أحدهم إليه نظرة سريعة وقال :

- وحق رب موسى يا قوم .. إنى أحس فى تلك الليلة .. كأن

سلسبيلا من السعادة يملأ قلبى .. حتى ليخيل إلى أن نورا يملأ الكون من حولنا ..

- هو كذلك وحق موسى .. كأنك تنطق بما أشعر به .. إن نفسى تهتف بى .. أن خيرا قد هبط على العالم الليلة .

فبينما هم كذلك .. إذ هالة قوية من النور تخطف أبصارهم .. تجعلهم يلتفتون إلى بعضهم وإلى بصيص النيران التى خبت أو كادت .. كأنهم يتساءلون عن مصدر هذا الضوء .. ربما شعر الرعاة بالرهبة أو الخوف .. ولعلهم حاولوا الهرب إلى مكان آخر .. لكن النور الساطع يملأ كل ما حولهم ، وهذا صوت يهتف بهم :

- لا تخافوا .. فها أنا أبشركم بفرح عظيم .. يكون لجميع الشعب .

إلتفت الرعاة إلى بعضهم ، وما يزال الصوت ينبعث وسط هالة النور :

- لقد ولد لكم فى مدينة داوود . نبى مبارك ..

وأيقن الرعاة فى هذه الكلمات الصدق ، ولكن الدهشة ما تزال تملك عليهم عقولهم .

قال أحدهم فيما يشبه التأكيد :

- إذن فقد تحقق الليلة ما جاء فى التوراة .. نبى من بنى إسرائيل .. يعيد الشعب إلى شريعة موسى ، ويخلصهم من أدران الحقد ، ويأخذ بهم إلى طريق الهداية .

وقال الثانى :

- لكن .. أين نجد هذا الوليد ؟ النبى الجديد ؟! - كل ما حولنا ليس

إلا خلاء ومزاود ماشية .. فهل يكون النبى الجديد إبنا لواحد من الرعاة ؟ وهل يمكن أن يولد نبى فى هذا المكان ؟!

وقال ثالث :

- إنما هى مشيئة الرب .. فهلا يا رب أنرت لنا الطريق إلى مكانه ؟

عند ذلك سمع الرعاة صوت ملاك الرب يهتف بهم :

- هذه علامة لكم .. تجدون طفلا مقمطا فى مزود .. إنه نبيكم .

ونظر القوم .. فإذا هالة النور تكبر وتكبر ، وهم يسمعون أصواتًا ملائكية تترنم بأنشودة عذبة :

- هذا هو يوم المغفرة .. هذا هو يوم الفرح .. هذا هو يوم السرور .. هذا هو يوم التهليل .. المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة .

لم يتمالك الرعة أنفسهم فأخذوا يهتفون :

- هلموا يا قوم ، فلنبحث عن مكان رسولنا ، وهذه هالة النور .. نتتبعها .. هلموا ياقوم ..

أخذ الرعاة طريقهم - تسبقهم هالة النور - يفتشون كل مزود .. أيمكن أن يهيىء لهم الرب طريقهم إلى النبى المولود ؟

كانت مريم ووليدها وسالومة ويوسف .. قد استقروا فى ذلك المزود ، فبينما هم كذلك .. سمعت مريم أصواتا تقترب منها ، فأوجست فى نفسها خيفة ، وخشيت أن يكون قومها قد عرفوا أمرها ، فجاءوا يهتكون سترها .. أو أن أعداء يطلبون وليدها ..

يبتغون به شرا ، وراح يوسف وسالومة يطمئنان خاطرها .. لكن الأصوات تقترب وتقترب .. تهتف فى فرح :

- المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

قالت سالومة وقد طربت لهذه الأنشودة :

- ما أجملها من أغنية ! وما أعذب كلماتها .. كم أحس فيها صفاء وإيمانا .. إنها أنشودة السلام .

فما هى إلا لحظات .. حتى كان الرعاة يقفون عند باب المزود .. حيث توقفت هالة النور .

وحينما دخل الرعاة .. وجدوا مريم وطفلها بجانبها .. مقمطا كما حدثهم ملاك الرب .. وتعلقت أبصارهم .. فإذا إشراقة نور تملأ قلوبهم .. وإذا هم يشعرون كأن هواء رقيقا ينعش صدورهم .. أو ريحا طيبة تملأ نفوسهم عبيرا ، أو كأن سلسبيلا عذبا يطفىء ما كان فى قلوبهم من لهفة .. فيخرون سُجَّدا ، وما تزال كلمات الأنشودة تتردد على ألسنتهم :

- المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة .

كانت مريم ويوسف وسالومة ينظرون إلى الرعاة فى سجودهم ، فيخيل إليهم أنهم ملائكة أطهار ، فأيقنوا أن ذلك فضل الله .. يؤتيه من يشاء .

وحكى الرعاة لهم ما شاهدوه وما سمعوه ، فسعدت مريم بما سمعت واطمأن خاطرها ، وتذكرت ذات يوم نادتها الملائكة :

﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(١) .

عند ذلك .. رفعت مريم رأسها إلى السماء ، وسجدت لربها شاكرة .. داعية .. قانتة .. عابدة .. راضية .



---

(١) سورة آل عمران الآيتان (٤٢ ، ٤٣)

(١٤)

مضى الرعاة يمجّدون الرب ، ينشرون الخبر فى كل مكان ، ويعلنون للناس عن ميلاد نبى جديد ، ويبشّرون الشعب بالسلام والمحبة ، وكان يوسف إذا ترك مريم مع وليدها وذهب إلى أورشليم .. سمع حديث الناس عن ميلاد النبى الجديد ، فإذا عاد إلى مريم .. أنبأها بما يتحدث به الناس ، وما يتذكرونه فى مجالسهم ، ويصف لها سعادتهم ، فتسعد هى بما تسمع .

مضت بضعة أيام .. إستعادت فيها مريم بعضا من قوتها .. فصعدت مع يوسف إلى حيث سجلا إسميهما واسم إبنهما فى السجلات التى أعدها الوالى .. لقد أسمياه .. عيسى .. الرب أمرهما بذلك يوم نادتها الملائكة يامريم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾[١] .

فليكن اسمه كما شاء له الرب .

كان على مريم ويوسف بعد ذلك أن يذهبا إلى قومهم فى حبرون .. ولم يكن يوسف ومريم وحدهما .. فقد أنسا بمقدم ثالث لهما ، ولا شك أن يوسف ومريم قد فكرا فيما يتعرضان له من أقاويل

---

(١) سورة آل عمران الآية (٤٥)

وافتراءات . فأما يوسف ، فسيناله من القوم فحش القول ، بما يجرحه فى كبريائه ورجولته .. إلا أن ذلك لم يكن ليصرفه عن الوقوف بجانب مريم ..

وأما مريم .. فمع ثقتها بربها إلا أنها لا تستطيع أن تنكر على القوم ظنونهم ، وهم يرونها تحمل دليل جريمتها أوإثمها كما يظنون .. قد يعرف البعض قدرها .. ويتذكّرون ماضيها وصلاحها ، وهؤلاء قليلون .. لكن كثيرين قد يروا فيها صورة لفتاة عابثة .. خانت عهد الرب .. ويا لها من جريمة بشعة من ابنة عمران ، وحفيدة داوود وربيبة زكريا .

وهكذا كانت الأفكار تتزاحم فى رأس مريم .. فهل يكون الرب بها رحيما ؟!

قالت مريم تنادى ربها :

– رباه .. أنرت الأرض .. وهادها ونجادها .. سهولها وراوبيها ، وأنرت نفسى بالإيمان بك .. فهلا يارب .. أن تشرق بنور إيمانك فى قلوب قومى ، فتنير بصائرهم ليهتدوا .. فإنك أرحم من أن تتركنى وحدى ؟!

وكأن الله قد سمع نداءها ، فجاءها صوت ملاكه يهتف بها :

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[٢] .

---

(٢) سورة مريم الآية (٢٦)

مضى الجميع فى طريقهم .. حتى إذا وصلوا إلى مشارف ديارهم .. أحست مريم ويوسف بالخوف يهزهما ، ولا شك أن كثيرا من الناس قد رأوهم ، فارتسمت الدهشة على وجوههم وهم يرون مريم تحمل طفلها ..

فهذا أليعازر .. شيخ من شيوخ إسرائيل .. إنه يعرف مريم ، وكثيرا ما رآها فى بيت الرب ، قائمة على خدمة الهيكل ، فأعجب بصلاحها وتقواها .. إنه يراها اليوم تحمل طفلا .. ترى ماذا حدث ؟! سؤال كان يلح على الرجل ، حتى همَّ أن يسأل يوسف ومريم أمرهما .. لكن شيئا ما جعل الكلمات تتعثر فى حلقة ، فنظر إلى مريم فى ريبة ، ونظرت هى إليه فى استحياء ..

حتى هذه الفتاة التى ربطتها بمريم ذات يوم صداقة ومحبة ، فعرفت عنها العفاف .. إنها اليوم تراها على غير عهدها .. أُمًّا وهى ما تزال خطيبة !! وكادت الفتاة أن تقترب من مريم لتسألها أمرها .. لكن الحياء منعها .

أسرعت مريم ويوسف وسالومة إلى ديار القوم .. حتى إذا وصلوا .. كان التعب قد أنهكهم ، فهدأوا يطلبون الراحة .. لكن القوم تجمعوا حول مريم فى دهشة ، وهم ينظرون إلى من تحمله بين ذراعيها ..

لكن مريم صامتة .. شاخصة إليهم بنظراتها حينًا .. ثم متجهة إلى ربِّها بعينها حينا آخر . ثم تخفض الطرف حياء .. والقوم ينظرون إليها فى دهشة .. يصرُّون على معرفة الحقيقة .. قال أحدهم فى استنكار :

﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾[1] ..

وقال آخر :

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾[2]

وقالت إحداهن :

﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[3] .

أخذت مريم تتدبر معانى الكلمات .. نعم .. لقد كان أبوها رجل فضل وعلم . وكانت أمها طاهرة نقية ، وهى .. لا تقل عنها طهارة .. يعلم الرب أنها ما إقترفت ذنبا ، ولا أقدمت على معصيته .. لكن لا بأس .. لقد أمرها الرب أن تصمت ، ويوسف هو الآخر .. لا يستطيع أن يقول شيئا رغم أن أصابع الإتهام تشير إليه .. ونظرات القوم لا ترحم شيخوخته .

وأعاد القوم سؤالهم :

- يا مريم .. أما آن لك أن تخبرينا بأمرك ؟!

عند ذلك أدرك أحدهم أن بعضا من الكلمات تتحرك على شفتيه .. كأنما تدعوه لمناصرة مريم ، فاتجه إلى القوم .. يهدِّىء من ثورتهم . قائلا :

- فدعُوها يا قوم .. لعلها مثقلة بأحزانها أو لعل مشقة الطريق أعيتها ، فما تدرى ما تقول لكم .

---

(١) سورة مريم الآية (٢٧) (٢ ، ٣) الآية (٢٨)

ومع الحيرة والخوف والقلق والأمل .. اتجهت مريم إلى السماء .. كأنها تسترحم ربها .. حتى إذا ما إرتدت ببصرها إلى طفلها .. خيل إليها أن نظراته متعلقة بشيء فنظرت حيث رأت طائرا أخضر جميلا يرفرف بجناحيه ، فأشارت إلى ابنها ، فإتجه القوم بعضهم إليه ، فأدركوا فى نظراته صورة جديدة لم يألفوها فى مرأى الأطفال من إشراق ونور .. لكن أحدهم قال :

﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[1] ؟!

وكبرت الدهشة على وجوه القوم ، وهم يسمعون صوتا رقيقا .. يفيض عذوبة وصفاء .. يقول لهم :

﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾[2] ..

وتلفت القوم حولهم .. يبحثون عن مصدر هذا الصوت .. من يكون صاحبه ؟! وعاد الصوت يقول :

﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[3] .

---

(١) سورة مريم الآية (٢٩)   (٢) سورة مريم الآية (٣٠)
(٣) سورة مريم الآية (٣٠، ٣١)

نظر القوم إلى بعضهم .. كل يقرأ ما على وجوه الآخرين من الدهشة .. وكل منهم يشير إلى الطفل فى مهده وهم يهتفون :

- يا للعجب .. أطفل لم يتجاوز عمره بضعة أيام .. يتكلم !! يجيب على سؤال عجزت أمه عنه !!

واتجه القوم إلى مريم ، وهم أكثر ما يكونون دهشة ولهفة لمعرفة سرها .. لكن صوت الطفل عاد إليهم .. يجذب أفئدتهم .. يخاطبهم .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾(٤)

وصاح القوم :

- إنها معجزة .. آية من السماء ، صورة ناطقة بقدرة الرب .

كان جمع كبير من القوم قد اجتمعوا فيمن اجتمع من الناس ، وكان من بينهم بعض رجال الدين أليعازر ، وزكريا ويُوسَا .

أخذ زكريا ينظر إلى القوم فى دهشتهم ، وصور كثيرة تتراءى له .. يوم جاءت مريم إلى زوجته أليصابات تنبئها بأمر الرب ومشيئته .. قال زكريا :

- لعلكم يا قوم قد تأكدتم من براءة مريم ، فوحق الرب إنى لأعلم من أمرها وأمر وليدها ما لا تعلمون ، فدعوا مريم وابنها .. وليكن

---

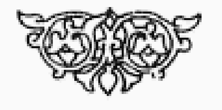
(٤) سورة مريم الآيتان (٣٢ ، ٣٣)

لكم فيما رأيتموه اليوم سرًا نحتفظ به فى طيات نفوسنا .. فمن كان منكم غير مصدق لما رأى : فليمسك سره خوف الفضيحة والعار .. أما من تفتح قلبه بالإيمان .. فليمسك سره خوفًا على مريم وابنها .. فكم أخشى عليهما من أيدى العابثين .

وحاول بعض القوم أن يعترض على كلمات زكريا ، واتخذ آخرون موقف الدفاع عنه . . وكان يوسا واحدا منهم .. لقد تذكر يوسا ما سمعه ، وما تحدث الناس به بالأمس عن ميلاد نبى جديد ، والأمل الذي ينشره الرعاة وهم يردِّدون الأغنية العذبة : المجد لله فى الأعالى ، وبالناس المسرة .. عند ذلك لم يتمالك الرجل نفسه وهو يقول :

- هو - وحق الرب - ما يتحدث به الناس .. رسول الله إلينا ، وإنا له لحافظون .

ومع الدهشة واللهفة ، والخوف والأمل ، وضجيج الإنكار ، وهمهمة التساؤل .. انصرف الناس .. فى انتظار ما تحمله الأيام .



(١٥)

من نفحة الإيمان ، وحنان الأمومة .. أخذت مريم تهب إبنها الحب والعطف .. بقدر ما أودع الله فى قلبها ، وكان الطفل يملأ عليها حياتها سعادة وإشراقا والرب معهما ، يهيىء لهما من فضل رزقه ، ووافر نعمه .. ما أدهش القوم من حولهما حتى أضحى القوم – إلا قليلا منهم – يؤمنون بطهارة مريم .

دخل يوسف ذات يوم على مريم .. وبضع كلمات تتردد على شفتيه يريد أن ينطقها .. ولاحظت مريم ما بدا على وجه يوسف ، فأقبلت عليه ونظرت إليه وقالت :

– أجديد فى أمر قومنا يا يوسف ؟!

– ليس فى أمر القوم جديد يا ابنة العم .

– فماذا بحق الرب ؟! كأنك تخفى عنى أمرا ، فحدثنى بما شئت .

– أما عن قومنا .. فلم يعد يُخِيفنا أمرهم .. لكن سر ابنك يوشك أن يشاع بين الناس !

– أتعنى أن الناس يتحدثون عنه ؟

– هم يفعلون ذلك .. يتحدثون عن ميلاد نبى جديد .. يقولون إنه ولد لفتاة عذراء فى بيت لحم ، وأن نجما لمع فى السماء ليلة مولده .

قالت مريم وهى تحاول أن تخفى جزعها :

– فما يخيفك يا يوسف ؟!

- لعلك يا مريم تعرفين ما قد يتعرض له نبى جديد فى عالم فسدت فيه الضمائر .. بين قوم يسودهم حكام قساة .. وكم أخشى أن يصل القساة إلى طفلك .

قالت مريم :

- لكنى واثقة من الرب .. راضيةً بأمره .. فأخبرنى بمزيد عما يتحدث الناس .

قال يوسف :

- منذ أيام وفد إلى أورشليم ثلاثة رجال من المشرق .. إنهم مجوس .. يتخذون النار إلهًا لهم . ولا يعترفون بإله موسى ، ولم يكن مقدم الرجال للرحلة أو التجارة .. لكنهم جاءوا يبحثون عن طفل تنبأت به كتبهم بأنه سيكون نبيا ..

- وماذا يجعلك تعتقد فى أنهم يطلبون ولدى ؟!

- هم يبحثون عن طفل ، يقولون إنه ولد لعذراء لم تقترن برجل ، أيمكن أن يكون طفل كهذا غير عيسى ؟!

- فهل تجد فى هذا ما يخيفك يا يوسف ؟

- إنما أخشى أن يكون للرجال هدف تجشموا من أجل تحقيقه مشقة الطريق ، لعلهم جاءوا كى ينالوه بأذى .

- بل لعلهم يجدون فيه نبيا لهداية قومهم .. لكن بحق الرب يا يوسف حدِّثنى بما يقوله الناس .

- إنهم فرحون .. هكذا تنطق وجوههم .. لكنهم يندهشون فيما يسمعون سؤال المجوس عن طفل ولد لعذراء .. حتى إن بعضهم

يقابل سؤال الرجال بالسخرية وكم أخشى أن يعرف هيرودس أمرهم .

قالت مريم :

- ثق فى الرب يا يوسف .. لقد عشت أكثرمن تجربة .. يوم جاء ملاك الرب يُنبئنى بكلمته ، ويوم خشيت أن تكذبنى أنت ، ويوم أحسست الوحدة .. بعيدة عن الأهل حيث وضعت إبنى .. ويوم تعرضت لأقاويل قومى .. وكان الرب بى فى كل مرة رحيما .

فما انتهت من كلامها حتى انتحت بمصلاها .. تناجى ربها .



(١٦)

الظلام يلف الطريق الذى يسير فيه هيرودس .. يهبط تارة ، ليرتفع فجأة .. يستقيم حينًا .. ثم ينحنى سريعا ، وهيرودس ماض فى طريقه .. يعتمد على بضع شمعات خافتة الضوء .. يمسك بها رجاله .. فجأة .. إنطفأت الشموع ، فراح هيرودس ورجاله يتخبطون فى الظلام .. الخوف يملأ قلوبهم .. وصور الضحايا التى ظلمهم هيرودس تتهيأ له .. خُيِّل إليه أنه يدوس فوق جثثهم .. يغوص فى دمائهم .. يتعثر فى أشلائهم .. كأن كثيرا من الأيدى تحاول أن تمسك به .. إنهم ضحاياه الذين قتلهم هيرودس . خُيل إليه أنهم نهضوا .. يطاردونه ، ولمح بينهم ولديه ، وزوجته مَرْيمنة ، وصديقته دوسيتوس وجادياس .

استيقظ هيرودس من نومه ، وقد نال منه الخوف ، وتحسس عقله ، ليتأكد أن كل ما رآه حلما ، ومع ذلك أصابه الفزع وهو يصيح :

- لا .. لا .. لن يكون ذلك .. لن تنطفىء شموعى ، ولن يكون الظلام حولى .. ستبقى شموعى موقدة .. بل مشتعلة !!

وقبل أن ينتهى هيرودس من كلماته .. كانت ذُبالة آخر شمعة من شموعه فى الحجرة قد انطفأت .. فانتشر الظلام حوله .. نفس الظلام الذى كان يغطى طريقه فى الحلم الذى رآه منذ لحظات .

أسرع هيرودس إلى نافذة حجرته .. يفتحها وجاءه ضوء الشمس أكثر ما يكون إشراقا .. إنه نور من الرب ، ولكنه لا يحس به ، وعاد هيرودس يصيح :

- لا .. لا .. لن يكون ذلك !!

كانت صيحاته عالية مدوية .. حتى خيل لرجاله أن حدثًا وقع لسيدهم ، فأسرعوا إليه .. الهلع يسابق خطواتهم ، وقلوبهم تكاد تقفز من صدروهم من هول الدهشة .. فماذا عساه قد حدث له ؟

وعاد هيرودس مرة أخرى ينظر إلى بقايا الشموع التى انطفأت ، ثم إلى قرص الشمس فى الأفق ، والحراس من حوله لا يدرون من أمر سيدهم شيئا .. تلتقى عيناه الحائرتان بعيونهم المتسائلة ، فلا يجد ما يقوله لهم ، ولا يملكون هم إلا الصمت .. وحاول هيرودس أن يتلمس لنفسه الهدوء ، وخشى أن ينكشف أمره .. فأمر جنده وحراسه أن ينصرفوا .

وجاء شمعون .. واحد من رجاله الذين استطاع هيرودس أن يستميلهم إليه ، وكان شمعون أكثرهم إخلاصا لسيده ، وما كاد هيرودس يرى شيطانه .. حتى خيل إليه أنه وجد من ينسيه أفكاره . وكان ما يزال يهذى بكلماته :

- طريق طويل .. مظلم .. وشموع بلا لهب ولا ضوء .. دماء .. صرخات .

وحاول هيرودس أن يمسك عن الكلام ، وسكت لحظات ..

يسترجع صورا كثيرة ويربط هذه الصور بما أنبأه به أحد رجاله عما يتردد على ألسنة الناس .. قال هيرودس :

- أتذكر يا شمعون ما حدثتنى به عن ميلاد نبى جديد .. ولد فى أرض اليهودية ؟!

- فبحق الرب .. أعد على مسامعى ما يتحدث به الناس عن هذا النبى .

- ولكنها يا مولاى مجرد أكذوبة يطلقها بعض رجال الدين ليحققوا بها مكاسب لاستعادة مجدهم .

- ليكن هذا يا شمعون ، ولكنى أريدك أن تحدثنى بما يقوله الناس .

- يقولون يا مولاى : إن رجالا من المشرق .. قد قدموا إلى الديار .. يسألون عن عذراء وضعت طفلا فى بيت لحم ، وأن هذا الطفل سيكون نبيا .

وسكت شمعون قليلا ثم قال :

- ولكن ذلك هراء ، فهل يعقل أن يكون لعذراء طفل بغير رجل ؟!!

- وماذا عن الناس يا شمعون ؟!

- لم يجد الناس - إلا قليلا - فيما يقوله المجوس إلا السخرية .

قال هيرودس ، وقد تتابعت فى ذهنه صورة الحلم :

- وأين هؤلاء المجوس ؟

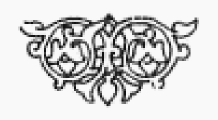
- إنهم يجوبون أنحاء أورشليم .. يفتشون عنه ..

- فليأتوا إلى .. ائتونى بهم .

- ..... ؟!

- نعم ، فليأتوا إلى فما أشد حاجتى إليهم .. مُرُوا الحراس ، فليبحثوا عنهم .
- لك ما تشاء يا مولاى .

فما هى إلا ساعة أو بعض ساعة .. حتى عاد الجنود بالرجال المجوس ، حيث كان لهم لقاء مع هيرودس .



(١٧)

هدأت مريم مع وحيدها .. ينعم بعطفها وأمومتها ، فيأنسان معا ، ويسعدان معا .

فبينما هي كذلك ذات يوم .. سمعت طرقات تدق بابها ، فأحست بالخوف .. لكنها ذكرت ربها .. كانت الطرقات سريعة خافتة . لكنها ماذا تفعل ويوسف ليس معها ، وهي وحيدة إلا من وليدها وربها .. ترى هل تأذن للطارق ومن هذا الذي يطرق بابها ؟

كان الرجال المجوس .. قد عرفوا من سجلات هيرودس أسماء من ولدوا منذ عامين في هذه المنطقة .. أراد هيرودس أن يساعدهم على أمل أن يأتوه بالطفل ، وبذلك استطاع المجوس أن يصلوا إلى حيث مريم وطفلها .

حينما دخل الرجال على مريم ورأوا طفلها .. أدركوا أنه هو الذي يبحثون عن فقد تعلقت بهم نظراته .. كأنهم كانوا على موعد معه ، أو كأنه كان ينتظر مقدمهم ليحقق لهم صدق عرَّافيهم .

ولاحظ الرجال في نظرات الطفل .. كأنها تنفذ إلى قلوبهم ، كما ينفذ لسان نور وسط لجة الظلام .

كانت مريم قد إنتهت من صلاتها ، فنظرت إلى الرجال في دهشة ، ونظروا هم إليها ، وما تزال عيونهم شاخصة إلى ابنها ، وخيِّل لمريم

أنهم يريدون شرا بابنها ، فأسرعت إليه تحتضنه .. كأنما تحول بينه وبين الرجال :

قال بلطشاصر أحد الرجال :

- ما أحسب إلا إنك أم الطفل ؟

- هو كذلك ، فماذا تبتغون بحق الرب ؟!!

أجاب ملكيور وعلى شفتيه ابتسامة مطمئنة :

- اسمه عيسى .. أليس كذلك ؟

قالت مريم :

- وكيف عرفت هذا ؟ وما حاجتكم به ؟ هل من شيء أقدمه لكم ؟ إن خيرات الرب ونعمه كثيرة .

فقاطعها غصيار ثالث الرجال :

- فما جئنا لشيء من هذا أيتها المنعم عليها .. وإنما قطعنا الطريق من ديارنا .. طويلة شاقة ، لنصل إلى إبنك ، وحق ربك ورب آبائك ما جئنا إلا لخير نريد أن نتأكد منه .

تذكرت مريم حديث يوسف لها منذ أيام عن رجال المشرق الذين يسألون عن عذراء ولدت طفلا ، وأدركت أنهم قد عرفوا أمرها ، فحاولت أن تصرفهم فى أدب ، ولكنها سمعت أحدهم يهمس لزميله :

- ما أشك أنه الطفل ، إن النجم الذى كنا نتبعه قد توقف هنا .. انظر .. إنه ما يزال فى السماء ، كأنه يحرس من فى هذه الدار .

ولاحظت مريم أن طفلها قد أمن إلى الرجال ، وأنهم فرحوا به ، وراحوا يقدمون له الهدايا : ذَهَبًا ، ولَبانًا ، ومُرًّا .

قال بلطشاصر لمريم وقد شاهد على وجهها علامات الشك ..

- لئن تصدقينا أمرك وطفلك ، فإنما نعطيه عهدا أن نكون لكم درعا من أى خطر .

- .... !!

وتبعه ملكيور :

- إنه رسول هداية لقومه .. ينتشر دينه فى المشرق والمغرب .. هكذا تقول كتبنا ، وسيجد الناس فى دينه سلاما وأمنا .

عند ذلك شعرت مريم بالطمأنينة ، وصدقت ما قاله الرجال حينما رأتهم يسجدون لابنها اعترافا ببركته وشكرا للآلهة التى هدتهم .

ولم تكد سالومة تفيق من دهشتها .. حتى سمعت بلطشاصر يقول :

- كم نسعد يا سيدتى حينما تمنحينا خصلة من شعر طفلك .

وقال ملكيور :

- لتكن بشرى إلى قومنا ، وتأكيدا لتوفيقنا فيما قدمنا من أجله .

وتبعه غصبار :

- ولتكن كل شعرة منها .. طريقها إلى جهة من جهات العالم .. إلى حيث تنتشر تعاليم دينه .

قالت مريم :

- لكم ما شئتم ، ولكم بحق الرب .. إله موسى .. كونوا على السر حافظين .. يعلم الرب مقدار خوفى من بطش الحاقدين .

قال أحدهم :

- نحن نعلم ذلك . قرأناه على وجه هيرودس .. لاحظنا علامات الحقد عليه فاحذريه أن يعرف شيئا من أمركما .

وقال الثانى :

- الآن نودعك حيث نعود إلى ديارنا ، فسلام الآلهة عليك وعلى ابنك .

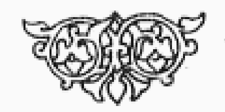
ودع الرجال مريم وسالومة حيث ابتعدوا .. ومضوا فى طريقهم يتخذون من الليل ستارا لهم .. يحميهم من أعين هيرودس ، وبينما كان الرجال يغادرون المدينة .. كانت مريم وسالومة تتساءلان .. ترى هل يكون الرجال على عهدهم لنا ؟

وأقبل يوسف ، فإذا مريم تدعوا ربها وتناديه .. يغمرها فيض إلهى أشرقت به جنبات دارها .. حتى إذا ما انتهت من صلاتها .. نظرت إلى يوسف فإذا أثار لهفة على وجهه ، وبضع كلمات تتردد على شفتيه .

ولشد ما كانت دهشة مريم حين تسمع يوسف يحدثها عما رآه فى حلمه .. ملاك الرب ، وهو يهتف به .. يحذره .. يطلب إليه أن يأخذ الطفل وأمه إلى أرض مصر .

يا الله ..!! أتترك مريم ديارها إلى أرض غريبة لا تدرى عنها شيئا .. كانت من قبل تخشى على نفسها ، ولكنها اليوم تخشى على طفلها .. كانت من قبل تخاف من قومها ، ولكنها اليوم تخاف ممن

أشد بطشا .. هيرودس .. لقد قاست الوحدة والوحشة ، وقاست مرارة سوء الظن من قومها ، فهل شاء لها الرب أن تقاسى عذاب الغربة وهى ترعى طفلها فى أرض غير أرضها ، وبين قوم ليسوا بقومها .. !! لكنها مشيئة الرب .. أليس هو الذى أمر يوسف بالرحيل ؟.. فليرحلوا ..



(١٨)

أوشك الليل على الرحيل ، وما تزال فيه بضع لحظات توشك هى الأخرى أن تنتهى لتؤذن بمشرق فجر جديد ، ومع ذلك لم يستطع هيرودس أن ينام ، فقد خاصمة طائر الكرى ، وحلقت فوقه أطياف السهد فأسهدته .. إنه الرجل الذى عانت له الجباه وانحنت له الرءوس تَجِلَّه أو مذَّلة ، ومع ذلك فالفكر يوجعه ، والسهاد يصر على مصاحبته .

منذ ساعات كان هيرودس يعبث مع العابثين من حاشيته، ويسعد بأغنيات جواريه ، وهم ينشدون أعذب الألحان ، ويرقصن فيلْهِبْنَ عاطفته ويشعلن جذوة غريزته .. يعب من كئوس الخمر .. يتخاطفها من أيدى حسناوات قصره ، فيسكر برحيق جمالهن ، ومفاتن أجسادهن ، ورجاله من حوله .. يشاركونه الشراب والضحك .. لكن المجلس قد انفض ، وغادر الجميع القصر ، وبقى هو وحده يذرع حجرته حينا .. ثم يتوقف ليتطلع إلى جدرانها .. فيخيل إليه كأن أشباحا تنظر إليه .. فيرتد به البصر خائر القوى .. حزين النفس .

ومضى هيرودس بخطوات مترددة والفكر يملأ رأسه .. حتى إذا اقترب من مخدع إحدى جواريه .. صاح دون أن يدرى :
- أمنرديس .. أمنرديس ..

كانت أمنرديس فتاة رائعة الجمال .. عذبة الصوت .. ندية القلب .. ولم تكن من بنات فلسطين .. ولكن كانت من بنات النيل .. حفيدة الفراعنة ، اختطفها الرومان ذات يوم ، من بين قومها فى عيد وفاء النيل .. وابتعدوا بها عن مصر .. حيث باعوها فى فلسطين .. وعاشت أمنرديس تقاسى الغربة والعبودية .. تصارع أمواج الحياة القاسية ، فراحت تنفس عمًّا فى نفسها ومشاعرها أحزانا باكية ، وسمع شمعون أحد أصدقاء هيرودس صوتها فأعجب بها ، وسره جمالها ، فأخذها إلى قصر سيده ، لتصبح واحدة من جواريه ، وقرَّبها هيرودس إليه ، فقد كان يطيب له أن يستمع لصوتها .. لكن قلبها كان مشدودا إلى هواها فإن لها حُبًّا لا تنساه ، إنها ما تزال على عهدها لفتاها .. ابن عمها .. لقد كانا على موعد لزفافهما ، ولكن مشيئة جند الرومان ومشيئة هيرودس أبت عليهما غير ذلك .. شاء الرومان إلا أن يفرقوا بين الحبيبين .. فراقًا من غير وداع ، ودون أن يتزود كل منهما من الآخر بزاد يخفف عنهما لوعة الفراق ، ومن أجل هذا كانت أمنرديس حاقدة على الرومان ناقمة على هيرودس .

وحينما نادى عليها هيرودس .. كانت ما تزال ساهرة .. تجتر ذكرياتها ، وتتحرق شوقا إلى مياه النيل ، وشمس مصر التى تذكّرها بآلهتها .. تتذكر فتاها .. ترى هل اختطفه الرومان ؟! ألا ما أعجب هذه الحياة .. هنا فى فلسطين .. يقاسون من ظلم الرومان ، وهناك فى مصر .. يقاسون ظلم الرومان .. فما أقسى هؤلاء المعتدين !

ما كادت أمنرديس تسمع صوت سيدها .. حتى أسرعت إليه ..

فلمحت فى عينيه سطورا من الحيرة والقلق .. بينما هو أسرع يقول :

- أما زالت يقظى يا أمنرديس ؟!!

- إنما كنت الليلة على موعد مع النوم يا سيدى .. حين سمعتك تنادينى ، فهلا أستطيع أن أفعل من أجلك شيئا ؟

فتنهد هيرودس وقال فى يأس :

- لا .. لن تستطيعى أن تفعلى شيئا يا أمنرديس .. لقد عجزت أن أحقق لنفسى ما أنشده !!

- عفوا يا سيدى ، فما يستطيع أحد أن يرفض لمولاى أمرا .

- لكنه حدث يا أمنرديس .. لقد عجزت أن أحقق لنفسى الراحة .

- فَمُرْنى بما يريح بالك .. إن شاء مولاى ، فبضع كئوس من الشراب .

- لا يا أمنرديس .

- فماذا إذن يا مولاى ؟

- النوم .

- النوم ؟! بحقك يا مولاى ماذا تريد ؟!

- هو كذلك يا أمنرديس .. فهل لك أن تنادى النوم ليملأ جفنى ؟

- ....؟!!

- ألم أقل لك إنك عاجزة عن ذلك .. إن الإنسان يستطيع أن يفعل الكثير ، ولكنه قد عجز عن تحقيق أبسط الأشياء .. النوم مثلا .

كانت أمنرديس تنظر إلى هيرودس ، فترى فيه صورة الحاكم الظالم ، أليس هو أحد الذين أبعدوها عن فتاها ..

وصاح هيرودس :

- إلىَّ بكئوس الخمر يا أمنرديس .. لعلى أنسى نفسى .

قالت أمنرديس :

- وشىء من الغناء يا مولاى ؟!

- ما حاجة لى به فالغناء يطربنى .. وأنا أريد أن أبتعد إلى عالم النسيان .. إلى بكئوس الخمر ، فاملئيها ، واسكبى فيها من رحيق سحرك ما يسكرنى وينسينى أحزانى .

حينما دخل هيرودس حجرته .. أدهشه ذلك الظلام الذى يملأ جنباتها فقد انطفأت كل الشموع ، وحينما أقبلت عليه أمنرديس كان يتخبط فى ظلامه ، فراحت تعيد إشعال شموعه .. لكنها ما تكاد تشعل واحدة .. حتى تنطفىء الأخرى ، وسيدها ينظر إليها فى يأس ، وقد تتابعت فى ذهنه صور الحلم الذى رآه .. شموعه المنطفئة ، وصوت أشباح ضحاياه يلاحقونه ، وتذكر هيرودس الرجال المجوس الذين ذهبوا يبحثون عن الطفل .. لقد خيَّبوا أماله .. لم يعودوا ، فراح يصيح :

- لن يعودوا .. تركونى وحدى .. الويل لهم !!

وهاجت أعصاب هيرودس وهو يختطف كئوس الخمر من أمنرديس ليسكبها فى جوفه .. حتى لعبت الخمر بعقله ، فراح فيما يشبه النوم لتعاوده صور وأحداث حلمه واستيقظ فزعا وهو يصيح :

- لا .. لن يكون ذلك .. ليقتل كل طفل فى بيت لحم .

ولدهشته سمع صوت شمعون يقول :

- وما جاور بيت لحم

- نعم وما جاورها ، فليذهب الجند ، وليأتونى برءوس الأطفال .
- ولابد أن يكون رأس هذا الطفل واحدا منها .

ما أشرق صباح اليوم التالى .. حتى كان رجال هيرودس يقتحمون الدور .. ينتهكون حرماتها .. ليبحثوا عن كل طفل وأعملوا سكاكينهم فى رقام الأطفال حتى امتلأت الشوارع بدماء الأبرياء ، وارتفعت صرخات النساء تشكو ظلما فاق كل الحدود ، وبدت النساء فى بيت لحم وقد لبسن السَّواد على فلذات أكبادهن ، وحزن الرجال على أطفالهم ، لكن هؤلاء وهؤلاء .. لا يستطيعون إلا أن يحتبسوا آهاتهم ويمسكوا دموعهم ، وفى قلوبهم لهفة الإنتقام .

وأعادت هذه الصورة إلى أذهان الناس .. ما حدث لبنى إسرائيل فى مصر .. حين عصف بهم غضب فرعون .. فاستحيى نساءهم وقتل أطفالهم ، وغدت بيت لحم وما حولها وقد تسربلت فى ثياب سود ، وأخذ الناس يبكون على الحقيقة التى ضاعت وسط زحمة الظنون ، ويأسفون على الأمل الذى كاد يشرق فى حياتهم .. أمل النبى الجديد .. ومع الخوف والفزع .. يسائل الناس بعضهم ما ذنب هؤلاء الأطفال ؟!.. أما يكفى ما يفعله الرجل بشعبه من السخرة والتعذيب إرضاء لسادته من الرومان ؟ وما يستطيع الناس إلا أن يطلبوا الرحمة لأبنائهم ، والخلاص من الطاغية ، وأن يحفظ رسوله من سكين هيرودس ، كما رحم موسى من سكين فرعون .

وفى خضم تلك الدماء الزاخرة التى أراقها هيرودس .. بحث القوم عن مريم وطفلها ، فقد عرفوا ما كان من أمر هيرودس والمجوس ،

وأدركوا أن ابن مريم هو الطفل الذى يبحث عنه رجال هيرودس ، ولكن .. كم كانت دهشتهم حينما لم يجدوا مريم وطفلها .. حتى لقد ظن بعضهم أن رجال هيرودس قد قتلوا الطفل ونكَّلوا بأمه ..

قال أحدهم :

- فأين يوسف ؟

وبحث القوم عن يوسف ، فلم يجدوه ، وتساءلوا فيما بينهم :

- ترى ماذا حدث لهم ؟

وهتف آخر :

- وأين سالومة ؟

فردد الجميع :

- أين سالومة ؟.. إنها ولا شك تعرف من أمر مريم أكثر مما نعرف .

قال بعضهم :

- فلنبحث عن سالومة ، فلعلنا نجد عندها إجابة لسؤالنا .

وتفرق البعض يبحث عن سالومة ، وبقى آخرون ينتظرون ، ومازال السؤال يلح عليهم : أين ذهبت مريم وطفلها ويوسف ؟! ثم .. لماذا تركوا ديارهم وأهلهم ؟ أيمكن أن تكون مريم ما تزال على حزنها مما أصاب قومها ؟!

واختلف القوم ..

فأما هؤلاء الذين طمس الحقد على قلوبهم ، وعَمَت بصائرهم عن نور الحقيقة .. فقد شطّوا فى ظنونهم ، فاعتقدوا أن مريم ويوسف قد هربا خوفا من بطشهم ، وليخفوا معالم جريمتهم ، وليسكبوا

دموع عارهم ، وأما من كان مؤمنا بالله وببراءة مريم .. فقد زاد إيمانا على إيمانه .

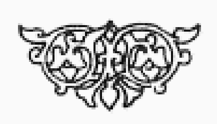
وبينما كان الجميع فى دهشتهم وأفكارهم .. وصلت إليهم أخبار مذابح هيرودس فى المدينة ، ولئن حزن القوم لما يفعله هيرودس ، فقد أسعدهم أن تكون مريم وابنها قد ابتعدا عن الخطر .

وصاح من يقول :

- إنها مشيئة الرب .. شاء أن يحفظ لمريم وابنها ، فأمسكوا سركم فى صدوركم وادعوا الرب أن يكون مع من تركونا على غير موعد وبلا نظرة وداع .. أن يمنحهم الله السلامة .

فردد الجميع :

- آمين .



(١٩)

كان القمر يحرس الكون بنوره .. يلقى ضوءه على طول الطريق .. حيث مضى يوسف تصحبه مريم وابنها ، ورفيقتهم سالومة التى آثرت ألا تفارقهم .. نذرت نفسها لصحبتهم .

وغادر الجميع أرضهم ليشدوا رحالهم إلى مصر .. اتخذوا من الليل ستارا يحميهم من أعين الرقباء .

ومضى الركب بعيدا عن أرض هيرودس .. شيخ عجوز يقارب التسعين من عمره .. يمسك بيده زمام حمار أسود ، وبيده الأخرى عصا يتوكأ عليها ، وسيدة جميلة فى ربيع عمرها .. ترتدى ثوبا من الصوف الأسود الخشن .. تغطى رأسها بطرحة ناصعة البياض ، وهى تداعب طفلها الذى يرتدى سروالا طويلا ، وقد علقت على صدره تعويذة ، وريشة قرمزية اللون ، وخلف العجوز والأم سيدة أخرى فارعة الطول .. تحمل متاع القافلة .. صرة بها ملابس وطعام .. إنها سالومة .

وعندما وصل الركب إلى أسوار المدينة .. لم يسمح لهم الحراس بالخروج ، فقد صدر أمر هيرودس بذلك .

قالت مريم فى نفسها وقد شعرت بالخوف :

- لا بأس ، فالله معنا .

وتقدم أحد الحراس من يوسف وسأله :

- من أنتم ؟
- عائلة يهودية من فلسطين ..
- فأى الجهات تقصدون !

فارتبك يوسف وهو يقول :

- إنما نقصد بلدة بعيدة لتقدم واجب العزاء .

لم تتمالك مريم نفسها ، فقد غلبها البكاء وهى ترجو الحراس أن يفسحوا لهم الطريق .. ونظر إليها أحد الحراس وهو يقول :

- لكننا يا سيدتى لا نملك ذلك .. فإن مفاتيح الأبواب أخذها رئيسنا ولن يعود إلا فى الصباح .

وقال الثانى موجها كلامه إلى باقى الحراس :

- هلموا أيها الحراس .. فقد انتصف الليل واشتدت برودة الهواء .

بينما ذهب الحراس بعيدا .. بقيت .. مريم والعائلة ، ولأمر ما حملت سالومة الطفل عيسى واقتربت من الأبواب الموصدة .. فمد الطفل يده ووضعها على الأقفال .. ولشد ما كانت دهشتهم حينما انفتحت الأبواب ، وخرجت الأسرة لتمضى فى الطريق .

وابتعد الركب عن الديار .. حتى وصلوا إلى بلدة الخليل .. فجنحوا إلى مكان يتزوّدون ببعض الماء .. حتى إذا أخذت الشمس تميل نحو المغيب .. غادروا مدينة الخليل .

كان القمر يشرق عليهم منْ عليائه فى السماء .. يكشف أمامهم معالم الطريق .. كأنه حارس لهم .. وكانت سالومة تسرّى عنهم وحشة الطريق بأحاديثها العذبة وكلماتها الحلوة .. وهبت النسمات

ندية طيبة .. تسطر فى سجلات الخلود أروع آيات الله ، فشعر الراحلون ببعض الأمن ، وآووا إلى شجرة نخيل قائمة عند منعطف الطريق .. يصلون لربهم .

وهكذا مضت العائلة .. يرون فى مشرق الشمس ومغيبها صورة لقدرة الرب ، وكم تعرضت العائلة فى طريقها لكثير من المخاطر .. فهذان أسدان وحشيان يقابلانهم فى الطريق ، فيرتاعوا لمرآهما ، ولكن الطفل ينظر إلى الوحشين ، فإذا هما قد أحنيا رأسيهما كأنهما قطتان أليفتان .. يقيمان على باب الكهف لحراستهم .. كم تعرضت الأسرة للصوص وللعطش حين ينفذ ما معهم من ماء .. ولكن الطفل عيسى استطاع أن يهديهم إلى حيث الماء .

كانت الطريق طويلة شاقة ، وهم يفكرون فى أمرهم .. لقد تركوا الأهل والأصحاب إلى ديار غريبة .. ليس فيها بيت للرب يمجدونه ، والرومان هم الرومان .. يسيطرون عليها ، فهل يقدر لهم أن يجدوا فى مصر الأمان والسلام ؟ وهل يكون حاكم مصر أرحم من هيرودس ؟!!

قالت مريم تناجى ربها :

- رباه هذه روح منك .. كلمتك ألقاها إلى ملاكك .. فلتكن معنا حتى نعود إلى قومنا .

ومضى الجميع فى طريقهم إلى مصر .. يصعدون الروابى حينا ، ويجتازون الرمال أو يلفون حول الآكام حينا آخر .. يطالعون فى

الشمس صورة رائعة لحكمة الرب حين يكون النهار .. ويرون فى القمر رسول هداية لهم فى طريقهم .. حين يكون الليل .

وشعرت مريم بالسعادة ، وشاركها فى سعادتها يوسف وسالومة .. فما هى ذى أطلال مدينة (الفرما) تبدو لهم من بعيد .. تلك المدينة التى حدثهم عنها أهل البادية .. إذن فقد وصلوا إلى مصر .. فحق لهم أن يسعدوا .

ولأمر ما أراده الرب .. قضوا ليلهم خارج المدينة .. فما كادوا يستقرون فى مكانهم .. حتى طوَّفت بأذهانهم ذكريات كثيرة .. فإلى مصر .. جاء جدهم إبراهيم وزوجه سارة ، وفى مر شاء الله ليوسف أن يصبح أمينًا على خزائنها ، وفى مصر لقى قوم موسى الكثير من الظلم على أيدى فرعون حتى شاء الله لهم أن يرحلوا .

قال يوسف لمريم :

– ما أشبه الليلة بالبارحة .

وقالت سالومة :

– وما أشبه فرعون مصر وما كان يفعله بذلك الهيرودس وما يفعله بأرض اليهودية .. ترى هل تكون نهايته كما انتهى فرعون ؟!

وأمسكت سالومة دمعة كبيرة .. كادت تغسل وجهها حين تذكرت أورشليم وبيت لحم !!

ومضت بهم الذكريات ..

ففى مصر .. نشأ موسى ، وحفظه الرب من فرعون .. حين أوحى إلى أمه فوضعته فى صندوق وألقت به فى اليم ، ثم تلقفه آل

فرعون ، ثم شاء الرب لأم موسى أن ترضعه وترعاه .. حتى شب فتى ، ليكون بعد ذلك نبيًّا .

وراحت مريم تستعيد صفحات حياتها .. يوم حملت بمشيئة الرب ، ويوم أنقذها الله وطفلها من سكين رجال هيرودس .

وأيقظها من تفكيرها سؤال سالومة :

- فيم تفكرين يا أم نبيى .. وهذه قسمات وجهك تنطق بذلك ؟!

- لقد تذكرت يا سالومة ما لاقاه موسى على أيدى قومه من جحود .. وما احتمله من فساد عقولهم ونبذهم تعاليم ربهم .

- إذن فأنت خائفة على إبنك ؟!

- نعم فما عدت أخشى هيرودس .. إنما أخوف ما يخيفنى .. حقد القوم وخيانتهم .

قال يوسف :

- إن الرب الذى نصر موسى ومن معه .. إنما هو ناصر لإبنك يا مريم .

وأشرقت فى نفس مريم نسمات الأمل ، وهى تنظر إلى ابنها ، ونور ينبعث من وجهه .. فيضىء ما حوله .. كم يطمئنها .. وكم تجد فيه عزاء وسلوى .. فتهرع إلى ربها .. تصلى له وتشكره وتدعوه .

وأشرق صباح اليوم التالى .. وبدأ قرص الشمس يعلوا فى الأفق .. ومضت العائلة فى طريقها حتى وصلوا (بسطة) .. فاتجهوا إلى شجرة قائمة هناك .. فجلسوا تحتها وقد يبست حلوقهم من شدة الظمأ بعد

أن انتهى ما معهم من ماء .. وترددت على شفتى يوسف المتيبستين بضع كلمات وهو ينظر إلى الطفل .. وكم كانت دهشتهم أن يروا سلسبيل ماء صاف .. والطفل على حافته يمسك بقطعة من حديد .. يدق بها الأرض فيتدفق الماء .. فشربوا ليستأنفوا رحلتهم .



(٢٠)

- أمنرديس .. أمنرديس

نداء ينبعث فى همس .. وطرقات خفيفة تقرع الباب .. حيث جلست أمنرديس مع ذكرياتها .. تتذكر أهلها وديارها .. هناك .. فى مصر .. فأى صوت هذا الذى يهتف بها فى حذر ؟! أيمكن أن يكون لسيدها الذى تركته منذ ساعة يعالج آلام نفسه وجراحها ؟ أيمكن أن يكون صوت الشيطان شمعون الذى يحاول أن يبثها لواعج نفسه عله يجد عندها آمال حبه ؟!

ومرة أخرى سمعت من يناديها :

- أمنرديس ... أمنرديس .

ترددت الفتاة فى خطواتها وهى تتهيأ لفتح الباب .. لكنها ما كادت تفعل حتى طالعت على ضوء الشمعة .. صديقتها راحيل ، شريكتها فى الآلام ورفيقتها فى الأسر .. كم سعدت كل منهما بالأخرى سعادة أنستهما بعض ما تشعران به من عذاب ومذلة .. حتى خيل لهما أن القدر قد خط لهما فى لوح مقاديره طريقا واحدة .. فوجدتا فى لقاءاتهما وأحاديثهما ما يخفف عن نفسيهما أحزانهما .

قالت راحيل وهى تخطوا إلى الداخل بخطوات حذرة :

- طاب مساؤك ياأمنرديس .

- بل قولى : طاب صباحك يا راحيل ، فما هى إلا لحظات حتى

يشرق الفجر .. ومع ذلك .. لم تكتحل عيناى حتى الآن بالنوم .
- أعرف فيمن تفكرين !!
- لكأنك تقرأين سطور أفكارى .. يخيل إلى أنه يهتف بى أن أعود إليه ، وما يدرى تلك الأغلال التى تقيدنى .. ما زلت أذكره هناك .. على شاطىء النيل .. عند شجرة الجميز الضخمة حيث اعتدنا أن نلتقى .. يطعمنى الحب ، وأطعمه الأمل ...

- تتحدثين عن ابن عمك تاحور .. حبيب فؤادك .. أليس كذلك ؟
- وهل لى أن أفكر فى غيره يا راحيل ؟!
فضحكت راحيل وهى تقول :
- شمعون .. مثلا ؟!
فأشاحت أمنرديس بوجهها وهى تقول :
- هذا الشيطان الكريه .. لعنته الآلهة .
- ولكنه يحبك يا أمنرديس .. لعل جمالك سحره ، أو صوتك أسكره !!

فتنهدت أمنرديس وهى تقول :
- وهل بقى لى من جمالى ما يأسر هذا الشيطان ؟! يا للآلهة دعينا من هذا الحديث يا راحيل .
- ففيم نتحدث إذن يا أمنرديس ؟ عن فتاك ؟ .. ابن عمك
- تعلم الآلهة كم تتوق نفسى إلى رؤيته !!
- .... !!
- وقومى .. كم أحن إلى مصر حنين الزهرة الذابلة إلى القطرة

الندية .. كم تشتاق نفسى إلى شربة من ماء نيلها أطفىء بها ظمئى .. فهل تقدر لى الآلهة أن أعود إلى مصر ؟!

فاعتدلت راحيل وهى تقول :

- ذكرتنى بمصر يا أمنرديس .

- إنما أذكرها دائما يا رحيل .. أذكرها مع كل نسمة هواء .. مع كل دقة قلب .. مع كل طرفة عين .

- لا بأس عليك يا أمنرديس .. فهذا حنين الوطن يتردد دائما على لسانك ولكن .. ألا تتذكرين ما حدثتك عنه ذات يوم .. عن نبى ولد فى أرض اليهودية .. فى بيت لحم . ذلك ما حمل سيدك على قتل كثير من الأطفال ؟!

- نعم يا راحيل .. مازلت أذكر تلك الكلمات التى سمعتك ترددينها .. تلك الأغنية العذبة التى كنت تنشدينها فى سكون الليل .. المجد لله فى الأعالى وبالناس المسرة .. كأنى أحس فى كلماتها فألا حسنا .

- إنها تلك الأغنية التى كان الرعاة يرددونها .. بشرى للناس .

- لكن بحق ربك .. أما يزال الناس يتحدثون عن هذا النبى ؟ أم تراهم ظنوا أن هيرودس قتله فيمن قتله من أطفال بيت لحم ؟!

- لا يا أمنرديس .. الرب قادر على أن يحفظ نبيه .

- فبحق الآلهة .. حدثينى عن النبى الجديد .. فإنى أشعر كأن هاتفا يهتف بخير للناس على يديه .

قالت راحيل :

- بل حدثينى أنت عن مصر يا أمنرديس . كم أتمنى أن أرى بلادكم .
-فستجدين هناك أهلك وقومك .
- ومن أجل هذا جئتك الليلة لأنبئك سرا .. أستودعه قلبك .
- فاذكرى ما شئت .
- إن الطفل الذى ينتظره قومنا .. نبيًّا .. فى مصر الآن فى وطنك يا أمنرديس .. هو وأمه العذراء ويوسف يعيشون بين قومك .. أرأيت كم أنا فى شوق إلى مصر !!

وراحت راحيل تحكى لأمنرديس ما سمعته عن مريم وابنها .. تلك الأخبار التى رواها أحد التجار القادمين من مصر .

كان هيرودس .. ما زال يحاول أن يغمض عينيه ، ولكن القلق يوجعه .. ووخزات قاسية تضاعف آلامه . كم قتل من أبرياء ، ودمعت عيناه .. ولم تكن قد عرفت الدموع من قبل ، وما أقصى دموع الظالمين على أنفسهم .. أتراها كانت دموع الخوف مما ينتظره ؟ أم دموع الآلام التى تفتِّت جسده ؟ أم تراها دموع الندم الذى يعتصر قلبه ؟!.. فبينما هو كذلك سمع من يهتف به :
- يا هيرودس .. إن الطفل الذى تبحث عنه ما زال حيا .

وتحرك الرجل فى فراشه .. وفتح عينيه يحاول أن يرى مصدر الهاتف .. لكنه لم ير شيئا .. حتى إذا أغمض عينيه .. عاد صوت الهاتف يناديه :

الطفل الذى تبحث عنه ما زال حيا .. يعيش مع أمه .. فى مصر .

وفزع هيرودس وفتح عينيه لعله يرى من يهتف به ، ثم صاح صيحة مكتومة :

- وأين ؟.. أى مكان فى مصر ؟!

- فى بيت خرب .. فى صعيد مصر ، هناك فى جبل قسقام .

وفكر هيرودس أن يفتح عينيه ليرى مصدر الصوت ولكنه خشى أن يختفى الهاتف ، فقال وما يزال يغمض عينيه :

- وماذا أفعل ولست بقادر على النهوض من مكانى ؟!!

- أرسل إليه جنودك ليقتلوه .. فى جبل قسقام .. أرسل جنودك .

صاح هيرودس صيحة تردد صداها فى أرجاء القصر .. واستيقظت أمنرديس وراحيل من أفكارهما وهرعتا إلى سيدهما وقد تهدج صوته وهو يقول :

- سأقتله ، فليذهب الجنود إلى مصر .. ليأتونى برأس الطفل .

أمسكت راحيل وأمنرديس عن الكلام .. وسؤال يحيرهما .. كيف عرف هيرودس حقيقة الأمر ؟ هل سمع حديثهما ؟ وتعلقت به نظراتهما وما زال صوته يمزق سكون الليل :

- فليذهب الجنود إلى مصر .. إلى جبل قسقام وليأتونى برأس الطفل وأمه .

وذهلت أمنرديس ، وودت لو استطاعت أن تذهب إلى مصر ، ولتحذر قومها من رجال هيرودس .

(٢١)

ألفت مريم وصحبها الحياة فى مصر .. فقد وجدوا فيها الأهل والأصحاب ، وأينما حلوا .. كانت البركة تصحبهم .. وكأنما أراد الله أن يزيد من مصر بركة .. لقد باركها يوم وفد إليها إبراهيم وسارة .. ويوم شاء ليعقوب وبنيه أن يدخلوها آمنين .. وها هو ذا يباركها بمريم وعيسى .. يصحبها يوسف .. يتنسمون فيها ريح يوسف ويعقوب وإبراهيم .

ومضت الأيام ، والأسرة تنتقل من بلدة إلى أخرى .. ينشر أفرادها الحب والسلام ، ويزرعون فى قلوب الناس الأمل .. تركوا بسطة إلى المحمة ثم إلى غيرها .. حتى نزلوا أوين .. هناك غرس فيها عيسى شجرة البلسم .. مخضرة أوراقها ورافة ظلالها .

وفى مصر .. رأى يوسف ومريم كثيرا من آيات الرب وحكمته .. نسمات شذية تحمل على أجنحتها رسل الحياة إلى ما فى الكون ومن فيه .. والنيل .. عذب .. يفيض سلسبيلا .

لقد كانت مصر لعيسى كتابًا مفتوحًا .. يطالع بين سطوره آيات ناطقة بقدرة الرب ، وصورا رائعة لحكمته .

ولشد ما أحزنهم أن يجدوا مصر .. وقد عبث بها الرومان كما عبثوا بفلسطين .. ولا شك أنهم شاهدوا وسمعوا كثيرا من مظاهر الكفاح وقصص البطولة التى كان المصريون يتغنَّون بها .. ويعلنون إصرارهم

على تطهير أرضهم من الرومان .. ترى هل كانت مريم تدعو ربها أن يقدر لمصر من ينشر فيها العدل والسلام ؟!

صور كثيرة تلك التى رأتها العائلة المقدسة .. وهم يستقرون حينا أو يتابعون السير أحايين كثيرة .. حتى وصلوا هناك .. فى الجنوب فى جبل قسقام .. على الضفة الغربية للنيل .. لعلهم كانوا يخشون أعداء لهم .. أو لعلهم أرادوا أن يتعبَدوا لربهم ..

حتى كانت ذات ليلة ..

كان كل شيء هادئا .. فالليل قد أرخى أستاره على الكون .. لفَّه بغلالة حالكة السواد .. لولا تلك النجوم التى بدت لامعة فى السماء كأنها مصابيح .. تملأ قلوب الناس بنور الإيمان ، وأحست مريم فى تلك الليلة بحنين إلى ديارها وأهلها .. كم تحن إلى أهلها .. حتى أولئك الذين ناصبوها العداء حين عادت تحمل إليهم وليدها .. كم تتمنى أن تعود إلى أورشليم .. حيث تصلِّى فى بيت الرب .. وإلى حبرون .. حيث كان مولدها ومهدها .

قالت سالومة وقد لاحظت ما ينطق به وجه مريم :

- أحنين إلى الديار يا أم نبيى ؟

- وإلى بيت الرب يا سالومة .

- وقومك ؟! وهيرودس الذى ما زال يطلب إبنك ؟

- ذلك ما يحملنى على الصبر .. لكنه لا يمنعنى من الحنين .

قال يوسف وهو يكتم مشاعره :

- فهل وجدت فى مصر إلا كل خير يا مريم ؟

- بل وجدت فيها كل ما يذكرنى بفلسطين .. أرضى .. حتى الرومان وقسوتهم .. كم يذكرنى ذلك بهيرودس .

- ما أحسب إلا أن المرض قد هده .

- لكن الرومان ما يزالون يعبثون بفلسطين .

- ماأحسب إلا أننا سنبقى فى مصر طويلا ، حتى يكبر عيسى فيكون رسولا إلى هيرودس .. كما كان موسى رسولا لفرعون .

لكن مريم أسرعت تقول :

- كم طال بنا المقام فى مصر ، ومازال الخوف يؤرق تفكيرى .

- أما زلت تخافين على إبنك ؟!.. لقد حماه الرب من شر هيرودس .

- هو كذلك يا سالومة .. ولكنى أشعر الليلة كأن أمرا يوشك أن يمزق بعض أمننا فى هذه المغارة .

قال يوسف :

- لعله الظلام الذى يكتنف الجبل حولنا .

- ما أحسست فى الظلام بخوف ، فإن نور الإيمان .. يمسح عن قلبى ظلام الليل .

قال يوسف :

- لك الرب يا مريم .. وليملأ قلبك بنور الأمان كما ملأه بنور الإيمان .. فدعى مخاوفك ، واهدئى .. ولتغمض عيناك .. فعل فى ذلك راحة نفسك .

وهدأ الجميع يطلبون الراحة .. إلا مريم فقد بقيت تصارع أفكارها .. حتى ثقل رأسها فنامت .

وأشرق صباح اليوم التالى .. فكانت مريم أسرعهم إلى ضوء النهار .. ثم تبعتها سالومة ، وراحتا تتابعان الطريق الممتدة ما بين الوادى والجبل .. فبينما هما كذلك .. أبصرتا قادما يسرع نحوهما ، فأحستا بالخوف .. لكن مريم استردت بعضا من شجاعتها وهى تقول :

– لا تخافى يا سالومة .. فإن نفسى تحدثنى كأن نسمة من فلسطين فى الطريق إلينا .. تعطر أنفاسنا !!

كان القادم ما زال يسرع فى طريقه .. فما هى إلا لحظات حتى أبصرت مريم رجلا يتجه نحوها .. وقبل أن تكبر علامات الإستفهام أمامها .. كان يوسف قد أقبل عليها .. فإذا مريم تهتف فى فرح :

– إنه يوسا !!

وردد الجميع :

يوسا ؟!

وقالت مريم ويوسف فى صوت واحد :

– نعم .. إنه يوسا .. ترى ما أمره ؟ وما الذى حمله إلى المجىء هنا .. إن وجهه تعلوه مشاق الطريق ، فماذا عساه قادم من أجله ؟!!

كان يوسا واحدا من قوم مريم .. تربطه بيوسف صلة قرابة ومودة .. ممن عاصروا الأحداث التى مرت بمريم .. وأقبل عليهم يوسا ، فحياهم ، وابتسم لهم ، وهشُّوا فى وجهه رغم دهشتهم . وما كاد الرجل يهدأ قليلا حتى قال لهم :

– هلموا .. فابتعدوا عن هذه المغارة .

وسكت الجميع ، فقد هزتهم المفاجأة .. أمن أجل هذا جاء الرجل إليهم ؟

قال يوسف :

- ماذا تعني يا يوسا ؟ وكيف حضرت إلى هنا ؟!

- دعوا ذلك .. فما جئت لأطارحكم الحديث .. لكنني أحذركم من جند هيرودس .

- جنود هيرودس ؟! صاح ثلاثتهم معا :

- هو كذلك وحق موسى .

قالت سالومة :

- يا للرب !! أما يزال الرجل على ضلاله ؟!

وعاد يوسا يقول :

- ما أحسب أن الوقت يطول بكم فى هذه المغارة . فأحزموا أمتعتكم .. وخذوا حذركم .. واتخذوا لكم مقاما آخر .

وأخذ الرجل يحكى لهم ما كان من أمر هيرودس حينما علم بهروب الطفل وأمه ، وكيف أنه جهز جنودا بالسلاح ليأتوا إلى مصر .

قال يوسف :

- إنه الشر .. ما يزال يمد للرجل سبيله !!

ورفعت مريم يديها إلى السماء فى ضراعة تنادى ربها :

- اللهم رحمتك فوق مشيئة هيرودس .. فهيىء لنا النجاة .

وقال يوسف :

- هوّنى عليك يا مريم .. فالرب أكبر من هيرودس وجنده .. هلموا فلنصل للرب وندعوه .

وبينما كانت مريم وسالومة يصلون للرب .. يسألونه الخير والأمان .. كان يوسا وقد أجهده المسير وطول الطريق .. فراح فى ناحية من المغارة .. وتوسد حجرا يطلب النوم .. كمن كان يحمل حملا ثقيلا .. ثم أزاله عن كاهله .

وانتهت الأسرة من صلاتهم ، فإذا يوسا قد مضى يغط فى نومه .. نوم عميق يوحى بمقدار ما كبده الرجل من .. مشاق .. لكن الساعات مضت .. والرجل ما يزال نائما ثم اكتفوا الحقيقة .. لقد مات يوسا .



(٢٢)

خيم السكون على قصره هيرودس .. إلا من أنات تتردد فى صدره ، وزفرات حارة تبيّن ما يعتمل فى نفسه من آلام .. وهدأ كل شىء حوله .. حتى ذبالات شموعه .. لم تجد من النسيم ما يحركها .. كل ما حوله راكد خامد .. كم يضايقه هذا السكون .. وهو الذى ألف الحركة والضجيج ، وكم يشعر بالوحشة لكنه المرض .. قد أقعده ، كأنما يشده إلى فراشه بوثاق متين رغم ما يحسه فى هذا الفراش .. جمرا متقدا يلهب ظهره .. وصور كثيرة تتراءى أمام عينيه .. حتى ليخيل إليه أنه يطفوا فوق بركة أسنة من الدماء .

هناك .. وعلى مقربة من حجرة هيرودس .. كانت أمنرديس .. الفتاة المصرية التى ما تزال تعيش على ذكرياتها .. تفكر فى العودة إلى ديارها وأهلها .. إلى النيل .. وتركت أمنرديس حجرتها إلى شرفتها علها تجد فيها ريحا من مصر .. كانت النجوم ما تزال تطل على الكون من عليائها ، وصيحات الفجر الأولى توقظ العالم بنورها الهادىء ، فتكسح أمامها جيوش الظلام ، وأحست أمنرديس بالهواء يلامس خديها برفق ، ونسمات رقيقة تهدهد صدرها ، وتبعثر خصلات شعرها ، وهى ماضية فى أفكارها .

وبدا قرص الشمس يبدو فى الأفق ، فأعادت إليها صورة وطنها وأهراماتها ونيلها وأهلها ، وفتاها .. فبينما هى كذلك أحست بيد تربت على كتفيها ، فالتفتت فإذا هى .. راحيل .

قالت راحيل وابتسامة تملأ وجهها :

- ما أجمل الطبيعة يا أمنرديس !!.. انظرى إلى قرص الشمس وهو يبدو فى الأفق .. وإلى أشعتها وهى تنسج على الكون رداء من الضياء ..

- أما أنا يا راحيل .. فأرى فيها صورة تذكرنى بقومى .. لقد كانوا على حق حينما اتخذوا من الشمس إلها لهم .

- والنيل .. يا أمنرديس ؟!!

- ما أعذب ماؤه وأحلى مذاقه .. عبده المصريون ، لما وجدوه من خير على يديه ، وسجلوا مظاهر فضله .. وقالوا فيه الكثير من المديح .. هكذا المصريون يا راحيل ..

قالت راحيل وقد سعدت بكلمات صاحبتها :

- أحنين إلى الديار يا أمنرديس ؟.. وحق الرب ما قصدت أن أذكرك بجراح نفسك .

فسكتت أمنرديس قليلا .. ونظرت إلى السماء نظرة ، فإذا قرص الشمس قد علا فى الأفق ، ثم استدارت نحو راحيل وهى تقول :

- ولكن بحق الآلهة يا راحيل .. ماذا عن رجال هيرودس الذين ذهبوا إلى مصر .. من أجل الطفل .. النبى وأمه ؟!

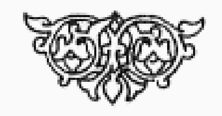
قالت راحيل :

- لقد مات الجنود جميعا .. لم يصلوا إلى جبل فسقام .. أجهدهم المسير ، وحطمهم طول الطريق .. الرب شاء أن يحفظ النبى وأمه .

- فادعى الرب يا راحيل أن يحفظ فتاى تاحور حتى نلتقى فى مصر.

لم تكد أمنرديس تنتهى من كلماتها حتى سمعت صيحة مكتومة .. وأصوات الخدم .. يسرعون الخطا فى فزع وهم يعلنون .

لقد مات هيرودس .



(٢٣)

استيقظت مريم مبكرة كعادتها ، وخرجت إلى الجبل .. تنعش صدرها بنسماته النقية ، وتنظر فى صفحة الوجود ضوء القمر ، وهو يسرع بخطواته إلى العالم ، فإذا لسانها يهتف :

– ما أعظم حكمة الرب !!.. هذا الكون بما فيه ومن فيه .. آيات على قدرة الرب .. وهذه الحياة بخيرها وشرها .. مقدَّرة بمشيئة الرب .. وإذا كان الرب قد شاء أن يعقب الليل بالنهار والنهار بالليل ، ويشرق النور بعد الظلام .. فلا شك أن عدالته اقتضت أن يملأ قلوب الناس بالأمل .. وأن يغمر بنور عدالته ، وفيض رحمته كل ما فى الكون .

وأحست مريم فى تلك الصورة وهى تهتف بهذه الكلمات كأنها تعبر عما يجيش فى صدرها .. إنها اليوم تشعر بسعادة كبيرة .

قالت مريم كمن تحدث نفسها :
– لا بأس فنحن بنى الإنسان .. إنما نعيش على الأرض .. نخطوا خطواتنا .. تتردد أنفاسنا فى صدورنا بمشيئة الرب .. الرب هو الذى رسم لكل موجود خطه فى الحياة .. وإذا كان يوسا قد كتب له الرب أن ينهى حياته فى هذا المكان .. فهذه حكمته ..

فبينما هى كذلك .. أقبل عليها يوسف وقال والإبتسامة تملأ وجهه :

- ما أحسب إلا أنك تتجهين بقلبك إلى فلسطين ، وما تزالين على عهده وأملك فى بيت الرب .

- هو ما تقوله يا يوسف ، فهل يقدر لنا الرب ذلك ؟!

قال يوسف :

- الرب قد استجاب دعاءك يا مريم ، وأمرنى ملاكه أن نعود إلى ديارنا .

- وهيرودس ؟!

- لقد مات .

وحكى يوسف لمريم من أمره مع ملاك الرب وهو يهتف به :

- يا يوسف .. قم فخذ الصبى وأمه ، واذهب إلى أرض إسرائيل ، فقد مات طالبوا نفس الصبى .

وفرحت مريم وسالومة وصلوا للرب .. واستعدوا للرحيل إلى فلسطين .



(٢٤)

أرأيت كم يسعد الإنسان الخائف حين تزول عنه مخاوفه ؟.. كم يسعد الغريب حين يئوب إلى أهله ودياره بعد طول فراق ؟.. هكذا كانت مريم ويوسف وسالومة وهم يودعون أرض مصر .. حيث اتخذوا طريقهم إلى فلسطين .

ولئن كان الركب قد غادر فلسطين ذات يوم فى ظلمة الليل والخوف .. إلا أنهم اليوم يعودون .. إلى أرضهم .. فى وضح النهار ونور الإطمئنان .. يحركهم الحنين واللهفة ، وتحدوهم عناية الله ..

مضى الجميع فى طريقهم ، وذكريات كثيرة طيبة عن مصر .. تملأ نفوسهم وصور الأماكن والقرى التى زاروها .. وذكريات الأيام التى كانت مريم تشارك أترابها فى غزل الصوف .. أو تمضى معهم فى حقول القمح تجمع سنابله .. لتستطيع أن تقيم حياتها وابنها .. أليست هذه هى الحياة ..

وتذكرت مريم فيما تذكرته ذلك اللص الذى كان ينوى السوء بهم ، ولكن بركة ابنها دفعت به إلى الهداية ، فأصبح حارسا لهم .. بعد أن كاد يؤذيهم .. وتذكرت مريم ذلك الرجل أقلوم الذى رآهم ذات يوم ، وهو عائد من حقله عند الغروب فأخذهم إلى داره .. يحميهم البرد والمطر .. كم سعدت به زوجته وسعدوا بها حيث شفيت .. ببركة ابنها الطفل .. كم تذكر تلك القرية الهادئة القائمة

على النيل .. تل بسطة حيث شاهدت احتفال المصريين بنيلهم .. ثم تذكر يوم جاءها من يخبرها بأن حاكم المدينة يطلبهم .. فهربوا إلى حقل قمح .. أفسح الرب لهم فيه مكانا فلم يصل إليهم جنود الحاكم .. إنها تذكر أيضا مدينة جناح التى استقبلها أهلها بالترحيب والماء والزاد .. ثم هى تذكر تلك المدينة العريقة أون حيث غرس فيها ابنها عصى يوسف ، فغدت شجرة .. اخضرت أغصانها ، إنها تذكر رحلتها إلى الجنوب حيث جبل فسقام ، حيث شاء الرب لقريبهم يوسا أن يدفن هناك ليكون لهم ذكرى .

يا لها من أحداث كثيرة .. تلك التى عاشتها الأسرة .. كم كان بعضها مرا مرارة العلقم ، وبعضها حلو حين كان الرب يتجلى عليهم .. وهم بذلك وذاك راضون .. ومريم أسعد ما تكون بابتسامة ابنها ، وصحبة يوسف .

ما هى إلا أيام قضتها الأسرة فى الطريق .. حتى وصلوا إلى مدينة أورشليم .. فإذا هى كما تركوها .. حتى وجوه الناس ما تزال علامات الخوف بادية عليهم .. صحيح لقد مات هيرودس .. ولكن جاء بعده واحد من أبنائه .. أرخيلاوس .. أتراه خيرا من أبيه ؟! أم على عهده لم تعظه نهاية سلفه !!

قالت مريم ليوسف :

– ما أحسب إلا أن هذه الديار لم تعد لنا !!

وقالت سالومة :

– ولكنها أرضنا .. أرض أبائنا وأجدادنا .. فهلا ننعم فيها بالأمان كما نعمنا فى أرض مصر ؟!

قال يوسف :

- لها الرب مصر .. وليحفظها الله من ظلم الرومان .. كم أحس بتلك المودة التى تربطنى بها وبأهلها ..

وقالت مريم :

- ما زلت أشعر بالخوف حتى ليخيل إلى أن هيرودس قد أوصى إبنه أرخيلاوس شرًا بنا .

ثم التفتت إلى يوسف وقالت :

- إن هاتفا يهتف بى ألا نبقى هنا

- فهل نعود إلى مصر ؟

- لو كان الرب يريد لنا البقاء فى مصر لما أمرنا بالرحيل منها .

- فأى وجهة نولى وجهنا ؟ فهل كتب علينا الترحال ؟ ثم رفع يوسف وجهه إلى السماء وقال :

- يارب .. بحق موسى وإبراهيم .. نحن نسير على هدى منك .. نمضى فى الطريق التى رسمتها لنا .. نستضىء بنور إيمانك ، فهلا يارب منحتنا سبيل الرشاد ؟

قالت مريم

- إنما احس كأن هاتفا يهتف بى أن نواصل المسير إلى .. الناصرة .. فإنها بعيدة عن سلطان أرخيلاوس ولعلنا نهدأ هناك عند قوم نعرفهم .

قال يوسف :

- ليكن ما تشائين يا مريم .

ومضى الجميع فى طريقهم إلى ... الناصرة .. كم كانوا سعداء وهم ماضون فى طريقهم .. ونسمات الآمال الصافية تتراءى لهم ،

وصور المستقبل المشرق تداعب أحلامهم .. كانوا يطالعون فى الكون صورا عديدة لقدرة الرب ، ويتذاكرون ما مضى عليهم من أحداث وذكريات ، حتى إذا واصلوا إلى الناصرة وجدوا كل شيء كما تركوه .. وكان حانوت يوسف النجار ما زال قائما فى أول الشارع كأنه فى انتظاره وهناك استأنف يوسف عمله كنجار .. يشاركه عيسى العمل والكفاح . وينعمان سويا بما تهيئه لهما مريم من سعادة ، وتمضى بهم قافلة الحياة حتى يحقق الرب لهم ما قدره فى لوح مقاديره وليكون لهم بعد فى الوجود ذكرى .. وفى التاريخ صفحات يتدارسها الخلف عن السلف .. ذكرى على مدى السنين .

رقم الإيداع : ٩٣/١١٣٦٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 04 - 1161 - 9

